د . يحيى أحمد المرهبي



ثقافة البناء

أفكار ورؤى مؤسِسَة للنهوض



تقديم

د. خالد الحوري

أ. أمين عيشان



نبذة عن المؤلف

السيرة الذاتية:

المعلومات الشخصية:

الاسم: دكتور / يحيى أحمد حسين المرهبي.

محل وتاريخ الميلاد: حجة 1973 / 2 / 5م .

الحالة الاجتماعية: متزوج وأب لسبع بنات وثلاثة أولاد.

محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران / مدينة عمران / حارة النهضة السكنية / شارع 22مايو .

رقم الموبايل: 00967774155602

البريد الإلكتروني:

almerhbi2010@gmail.com



أفكار ورؤى مؤسِسَة للنهوض

د. يحيى أحمد المرهبي

غرة رمضان 1441هـ ـ إبريل 2020م

الطبعة الأولى

العاصمة صنعاء ـ محافظة عمران

استهلال

أضاءوا ليلَ أمتنا وضاءوا

بعصرٍ فيه يُفتقدُ الضياءُ

بَنوا خطواتِهم في أصل صلدٍ

ليشمخ راسخاً ذاك البناء

لقد أَلِفوا العناء وكل حرٍ

لأجل اللّه يعجبه العناء

وبين يَديَ سَفرٌ مستنيرٌ

يُثقِّفُ من لأمتهم أرادوا

وجدتُ الحقَ يسكنُ ضِفتيه

كأنّ الحق للأرواحِ ماء

غداً شمسُ الحقيقة سوف تسمو

ويَذوي في مجاهله العِشاء

بقلم الشاعر المبدع

أ. محمد عامر السلمي

المعيد بكلية التربية والألسن ـ عمران

الإهداء

إلى أبناء الأمة عامة وإلى أبناء وطني الغالي خاصة .

إلى الأجيال التي تبني الحاضر وتسعى لبناء المستقبل .

إلى كل من يتوقون ويتطلعون لإعادة مجد أمتهم .

فيحضرون في مواطن البناء ويغيبون عن مواطن الهدم .

إلى كل من يزرع في القلوب شتلات الأمل .

ويضع في صرح الأمة لبنات البناء .

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل .

د . يحيى أحمد المرهبي

شكر وعرفان

الحمدُ والشكرُ والثناءُ أولاً وأخيراً لله جل في علاه الذي وفق وأعان على إخراج هذا الكتاب إلى حيِّز الوجود . والشكر والتقدير لكل من تتلمذت على أيديهم سواء من خلال أشخاصهم أو من خلال مؤلفاتهم .

وأتقدم بالشكر الجزيل لزوجتي الفاضلة وأبنائي الأعزاء على تفضلهم بمساعدتي وتوفير الجو الملائم لي لكي أنجز مثل هذا العمل .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل زميل وصديق أسدى إليَّ معروفاً أو قدَّم لي نصيحة كانت لبنة في بناء هذا الكتاب .

وأخصُّ بالشكر الأخ العزيز الدكتور/ خالد الحوري الذي تفضل بمراجعة الكتاب لغوياً، ووضع له مقدمة بهيَّة يستحق عليها الشكر والثناء .

وجزيل الشكر والتقدير أسديه لأخي وزميلي الأستاذ الشاعر/ أمين عيشان الذي تفضل بقراءة الكتاب وأتحفنا بمقدمة بديعة تدل على براعة وسعة اطلاع .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للمهندس/ عامر عبده الحلحلي الذي وضع بصمته في الكتاب من خلال التصميمات الأولية للكتاب، وإخراجه في حلَّته القشيبة، والشكر موصول لكل من الأخوين الأستاذ/ عبدالسلام الوادعي والأستاذ/ عمر الوراف اللذين وضعا في الكتاب جهدا مشكورا من خلال الإخراج النهائي للكتاب تصميما وخلفيات .

شكراً لكم جميعا أيها الأفاضل، ولن أستطيع أن أوفيكم حقكم، ولكني أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل ما قدمتموه من جهد في ميزان حسناتكم .

فهرس الموضوعات

مقدمة الدكتور/ خالد عبد الله الحوري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: 19)

" لسنا بحمد الله لا أدريين، فإننا ندري أن هناك إرادةً تقود الحياة في هذا الكون، ونحبُّ أن يدخل حساب هذه الإرادة في كل بحثٍ يفضي إليها؛ إذ لا نتيجة لإغفالها غير الحيرة أو الخطأ ...

ولْنَثِق بأن العقول لم تُجعَل لنا أداةً للضلالة والفوضى والاختباط، فإذا هي اختلط عليها الأمر، ورانت عليها الفوضى، ولم تأوِ بنا إلى ظلٍّ من طمأنينة العقيدة المُلهِمة فليس الذنبُ ذنبَ العقيدة، ولكنه بلا ريبٍ ذنبُ العقول ". (عباس محمود العقاد)

" ما يصنعه الآخرون بعقولهم، وعلومهم، ومذاهبهم، وآدابهم، وعقائدهم هي معاصرتهم هم، وقد أجادوا، وجَدُّوا، وأنجزوا، ولكن كلُّ هذا لهم، ولشعوبهم، وأممهم، وأجيالهم، ويجبُ أن تكون لنا معاصرتنا التي نصنعها نحنُ بعقولنا، ومن واقع حياتنا، وعلومنا، ولغتنا، وقيمنا، وآدابنا، وليس ذاك أمرًا صعبًا وإن احتاج إلى جدٍّ، وصبرٍ، وانقطاعٍ، وإخلاصٍ، وصدق، وهذه رسالة العلماء في كلِّ الأمم ". (محمد محمد أبو موسى)

اللهم تجاوز عن تقصيرنا في حمدك ومرضاتك.

اللهم إنا فقراءُ فأغننا، وضعفاءُ فقوّنا، وحيارى فسدِّدنا، ومرضى فاشفنا، وجهلاءُ فعلِّمنا، وعصاةٌ مذنبون فتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

اللهم صَلِّ على محمدٍ صلاةً نزدلفُ بها إلى مغفرتك، وسَلِّم عليه تسليمًا يحشرنا في زمرة أوليائه ويدخلنا في شفاعته يوم لا شفيع إلا بإذنك.

وصلِّ اللهم على أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل وعلى سائر المخلصين من أنبيائك ورسلك، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾ (آل عمران: 53) .. وبعد:

فهذا الكتاب:

* تحليلٌ لجملةٍ من التصورات التي اعتقد صاحبها أن توظيفها قد يساعدنا إلى حدٍّ كبير على رؤية موضوع (ثقافة البناء) عن قرب، ومن موقعٍ أفضل، ونحتاج اليوم إلى معرفة نظرية وخبرة عملية في توظيف هذه المعرفة، فنحن في زمنٍ ننشد فيه الانطلاق والتأسيس من أجل أن يكون للأمة موضع قدم في العالم إن لم تكن بيدها القيادة والريادة.

* تطرقت مقالاته إلى مسائل شائكة متنوعة، فيها ملامح من كل الكتب، وكثيرٌ مما ليس في الكتب، من قضايا محورية وأفكار تأسيسية، يجب أن تُطرَح بكل الأساليب، وتُناقَش بشتى الطرق، ويُعاد طرحها، ويُكرَّر الحديث عنها حتى تنجلي وتُفهَم، **فهو ليس كتابًا في (بناء الثقافة)، بل في (ثقافة البناء)، بعد أن أصبحت الثقافةُ بناءً، والبناءُ ثقافةً**؛ إذ إن تناول (ثقافة البناء) في عصر تكنولوجيا المعلومات يحتاج إلى خلفية معرفية مغايرة تمامًا لما كان الحال عليه في الماضي، فعالَمٌ مغاير يعني بداهةً مثقفًا جديدًا.

* شواهد تميُّزه ماثلة وناطقة ومتحركة وجيَّاشة في كل سطر، وفي كل جملة، وفي كل فقرة، تميُّزٌ ناطقٌ بذاته فلا يحتاج إلى إثبات؛ لأن مقالاته زاخرة به، وتستهدف الإقناع بضرورة إعادة بناء الأفراد والأمم، بناءً جديدًا يستخدم مكونات حية ونامية تتناسب مع جَيَشان العصر، وتحتفظ بالمقومات الأصيلة للأمة، وتستفيد من التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية.

* دعوة لحوحة لإعادة التكوين العقلي والنفسي للأفراد والأمم، وهذا يؤكد أن ثمَّةَ عائقًا جوهريًّا وخللًا بنيويًّا في طريقة التفكير ومنظومة القيم وأنماط السلوك في التكوين الثقافي القائم حاليًّا في بيئتنا العربية، فالمشكلة تكمن في غياب العقلية العلمية والركون إلى الأسلوب الخطابي.

* مشروعٌ جديد يأتي في إطار مشروع فكري متكامل يتناول مكونات أساسية مترابطة، تشكل في مجموعها منظومة (ثقافة البناء) في: (علاقة دائرة الاهتمام بدائرة التأثير)، و(بناء الإنسان ودوره في التاريخ)، و(العلاقة بين الحق والواجب وارتباطهما بالمعادلة السياسية والاقتصادية)، و(لبُّ العلم هو وعيُ السُّنَن الربانية)، و(مفهوم الحرية وعلاقته بالمسؤولية)، و(علاقة الإنسان بالزمن واستثمار كل أبعاده، استلهامًا للماضي، وبناءً للحاضر، واستشرافًا للمستقبل)، و(ثقافة المشروع)، و(تأسيس عقلية البناء)، و(تأسيس نفسية البناء)، و(رؤيتنا للعلم وتنويع مصادر المعرفة) .

مقاربات في الرؤى والمفاهيم، خلاصات وآفاق

* ينظر الكاتب إلى منظومة (ثقافة البناء) بمجموع عناصرها كقضيةٍ ذاتِ وجهين، تتطلب تثقيف غير المتعلمين علميًّا، وتوعية المتعلمين ثقافيًّا وعلميًّا أيضًا، ولا يخفى على أحدٍ أننا أصبحنا في حاجةٍ إلى تثقيفٍ علمي يحررنا من أسر تخصصاتنا الضيقة، ويسد فجوات الفراغ الفكري لدينا، ومَنْ يحاول أن يكتفي بفرعٍ واحدٍ من فروع العلم في الحكم على قضايا التاريخ أو المجتمعات أو التطور الحضاري أو أسباب التقدم أو التخلف فهو كمَنْ يتوهم أنه يمكنُ حلُّ المشاكل الكبرى بضربةٍ حاسمة دون اعتبارٍ لتعدد الأسباب .

وهذا التنوع التخصصي المتداخل شيءٌ منطقي؛ لأن الحياة أساسًا اندماجٌ وتماسكٌ وتلاحمٌ بين قوى مختلفة حول أهداف مشتركة، وكلُّ فهمٍ أوسع وإلمامٍ أكثر بالإنسان والمجتمع والكون والحياة،

يضيف طاقةً جديدة لقدرات الفرد، والاتجاهات التربوية المتقدمة تقوم على توسيع مصادر المعرفة وتنويعها لإعداد العقول للتعامل الواثق مع التطورات المعرفية المتلاحقة، ولا ينبغي أن نغفل عن حقيقةٍ بديهيةٍ شديدة الوضوح هي أن ساعةً واحدة من عمر رجلٍ ذي جوانبَ ثقافية متعددة تعدل عامًا كاملًا من أعمار سائر الناس، إنه يستوعبُ في يومٍ واحد ما لا يستوعبه الكثيرون في أعوام، إنه يقرأ في يومٍ أو في أسبوع ما يحتاج إلى زمنٍ طويل وجهدٍ جهيد من آخرين .

والعلاقة المتينة بين فروع العلوم لا بد أن تكون مصحوبةً بعلاقةٍ أوثق بين الإنسان والعلم كقيمةٍ كبرى في الحياة، فالعلم سؤالٌ لَحُوح، وسَعْيٌ دائمٌ للبحث عن الإجابات الممكنة في كل المواقع، وخلال كل فترات العمر، وفروع العلم ليست منشآت منفصلة قائمة بذاتها، وإنما هي أجزاء أو غرف ضمن بناء هائل الأبعاد، شامخ الارتفاع، متعدد الأدوار، وكلُّ غرفةٍ مفتوحة على ممراتٍ تفضي إلى جميع الغرف الأخرى التي لا بد أيضًا أن تبقى مفتوحةً؛ لأنها تستمدُّ حياتها من هذا الانفتاح، وتتغذى من هذا التواصل.

إن القصور المعرفي يبقى ملازمًا حتى للذين يعتنون بالعلم؛ لأنهم في الغالب تستغرقهم جوانب معرفية معينة على حساب جوانب أخرى لا تقلُّ أهميةً، وهذا يستوجب التواصل المستمر بين ذوي التخصصات المختلفة كما يقتضي إثارة السجال الدائم بين ذوي الاهتمام المشترك، وكذلك بين ذوي الاهتمامات المتباينة من أجل أن يتبين لكل طرفٍ ما لديه من فجواتٍ ونقص، ومن أجل أن تتلاقح العقول بما يعود عليها جميعًا بالثراء المعرفي والوضوح المنهجي.

* في أولى مقالاته عن (ثقافة البناء) في (علاقة دائرة الاهتمام بدائرة التأثير) ينظر الكاتب إلى (توظيف جهود وإمكانيات الأفراد والمجتمعات والأمم في دائرة تأثيرها) كمفتاحٍ لنجاحها وتغييرها نحو الأفضل، ويرى أن طغيان (دائرة الاهتمام) هو ترسيخٌ لضعفها، وضياعٌ لوقتها، وتأكيدٌ لفشلها، وتبديدٌ لطاقتها في نفي الحاضر والاحتماء بالماضي.

وأن الاهتمام بمتابعة القضايا العامة والكبرى دون أن يكون لأصحاب هذا الاهتمام أدنى تأثير فيها، واقعٌ مؤسف ينبغي أن نسخط عليه، ونتخلص من أسبابه، ثم أكَّدَ على ضرورة (الاهتمام) بكلتا الدائرتين معطيًا دائرة التأثير النصيب الأوفر من هذا الاهتمام، مما يُولِّد انطباعًا بأن (دائرة التأثير) مشمولة هي الأخرى بدائرة (الاهتمام) أيضًا، وليست منفصلةً عنها أو مباينةً لها.

ومن المعاني المعجمية الواردة في كلمة (الاهتمام): الرغبة الملحة في تجاوز الحالة الراهنة، فهو يعني العناية بالشيء والتركيز عليه والالتصاق به، وكلُّ شيءٍ نمارسه بدون اهتمام سيكون عقيم النتائج، وكلُّ مؤسسي العلوم كان الاهتمام المستغرق هو الذي حقق بزوغهم، فالاهتمام هو الذي أتاح لهم تطوير الفنون أو إحداث طفرات فيها.

وفي تاريخ المبدعين عشرات الشواهد على أحقية الاهتمام بمثل هذا الامتياز كمنبع أساسي؛ ليتم التركيز على خَلْق الاهتمامات النافعة في المجتمع، فلا يمكن تحصيل العلم إلا بالاهتمام، ولا امتلاك المهارة إلا بالاهتمام، بل إن الاهتمام المستغرق هو المدخل الوحيد إلى الإلهام الذي هو منبع الإبداع الذي أغنى الحياة الإنسانية علمًا وفكرًا وأدبًا واختراعًا.

* موقف الكاتب من (بناء الإنسان ودوره في التاريخ) يعتمد على إدراكه بأن الإنسان لا يكون إنسانًا إلا إذا تعامل مع الحياة بوصفها مسؤوليةً باهظة لا بُدَّ أن يتحقق فيها التعادل بين الحق والواجب، وبين الذات والآخر، وهي مسؤولية تستوجب الالتحام مع الوجود بعقلٍ مستقل، وفكرٍ مفتوح، وضميرٍ حي، وليس الإنسانُ إنسانًا إلا بقدر ما يعلم، وبقدر ما يلتزم بمقتضيات هذا العلم، وبقدر ما يدرك أن العلم محيطٌ هائج وتياراتٌ متضاربة لا يستطيع ركوبه إلا من تتوفر لديه الرغبة الصادقة في العبور، والقدرة المكينة على توجيه السفينة.

* علاقة الحق بالواجب وارتباطهما بالمعادلة السياسية والاقتصادية، فلا يفرط المرء بحقوقه وبالمقابل ملتزمٌ بواجباته، يبذل أقصى ما يستطيع لتحصيل المعرفة النظرية أولًا، وتكوين المهارة المهنية ثانيًا، يحرص على أن يؤدي واجباته المهنية وغيرها بمنتهى الإتقان والدقة التي يستطيعها، وبأقصى درجات الالتزام والصدق والإخلاص، يلتزم بالمواعيد بدقة، ولا يهدر الوقت، ويسعى جاهدًا لتحسين الأداء.

* لبُّ العلم هو الوعي السُّنَني، وعي السُّنَن الربانية وفهمها، وإدراك أنظمتها وقوانينها المودعة في كل مفردة كونية، بغية توظيفها بشكلٍ منهجي سليم، مما يترتب عليه اعتماد أساليب ووسائل تلائم ثبات هذه السُّنَن واطرادها واستمراريتها عبر الزمان والمكان، والإنسان الذي يهمه أن يعرف مستوى وعي المجتمع بهذه السُّنَن يستطيع أن يحصل على بعض المؤشرات لقياس هذا الوعي:

منها النظام والانضباط، وهو لازمٌ رئيسي من لوازم الشعوب المتحضرة، بل إن الكون بأجمعه قد قام على الانضباط من أكبر جرمٍ في السماء إلى أصغر ذرةٍ في الوجود، عشرات المجرات التي لا يتصورها العقل وآلاف النجوم والشموس والكواكب، كلها تتحرك بانتظامٍ لا يعرف التقدم ولا التأخر ولا الانحراف إلا بمقدار ما يكون الانحراف جزءًا من تكوينه من أجل وظيفةٍ محددة كتغير الفصول وتناوب المواسم، وهذا القانون الشامل يدلُّ على أن حياة المجتمع لا تستقيم إلا بانضباط السلوك، والالتزام بمعايير الحياة السوية، فليس هناك ما هو أسوأ من الطيش والرعونة، وليس هناك ما هو أكثر تعويقًا للمسيرة الحضارية من التفلت وفقدان الانضباط .

ومنها التفكير بشكل تاريخي، وهذا الكتاب يؤكد هذه الظاهرة أبلغ تأكيد، ونذكر هنا بعض الفقرات ذات الدلالة الواضحة في هذا الاتجاه، يقول الكاتب: " إن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى

حدٍّ كبير؛ لأن وراءها سُننًا ثابتة تحركها وتكيفها، وهو ما عناه العرب بقولهم: (ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة!)، وعبر عنه الغربيون بقولهم: (التاريخ يعيد نفسه) ... وتسألني: لماذا طُرِدنا من الأندلس؟! فأقول لك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (يونس: 44)، ثم أقول لك: لنتأمل عبرة التاريخ، فقانون سقوطنا يقول: حين يبحث كلُّ عضوٍ منا عن نفسه تسقط سائر الأعضاء ... ".

ويظهر أن حرقة الألم التي عاناها الأفذاذ في المجتمعات العربية مؤشرٌ واضح على العلة التي كانت سببًا للانهيار، يقول الأستاذ محمود عوض: " إن التاريخ هو بالضرورة سجلٌّ بسلوك البشر ... وإذا لم يكن هذا السلوك في الماضي محلًّا للدراسة والفهم والفحص والتأمل فإننا نصبح مهددين بعدم الاتجاه إلى مستقبلٍ أفضل ... وابن حزم وُلِد وعاش في ظل خطرٍ يهدد الدولة الإسلامية في الأندلس ... خطر التفكك والانقسام ... خطر الانهيار من الداخل ... وهو ما حدث فعلًا فيما بعد ... لقد كان عيب ابن حزم في رأي معاصريه أنه لا يزف آراءه بتدرجٍ، ولا يلطف بما عنده من تعريض ... (لذلك) لا نستطيع أن نفهم سقوط الأندلس بغير أن نفهم ابن حزم ... " .

ومن الظواهر التي تسترعي الانتباه في المجتمع الإسلامي عدم الاستفادة من عبرة التاريخ مع أن القرآن يؤكد على أهمية الاعتبار، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (يوسف: 111) .

وقد مرت بالمجتمع الإسلامي مِحَنٌ عظيمة فلم يتعظ بها، وأوضح مثال على ذلك أن المسلمين في الأندلس ظلوا أربعة قرون كاملة وأوروبا تسوقهم وتزيحهم من مواقعهم فيتراجعون، ولكنهم يزدادون فرقةً بينما يزداد المسيحيون تآلفًا، فقد امتدت مراحل السقوط أربعمائة سنة منذ سقوط (صقلية) عام 1085م حتى سقوط (غرناطة) عام 1491م آخر محطات المطاردة الصليبية للإسلام، ومع ذلك لم تنجب هذه الأمة في الأندلس جيلًا واحدًا يتعظ فيدرك خطورة المستقبل، فكانت تلك الكارثة المروعة التي تحكي اقتلاع الإسلام اقتلاعًا كاملًا من أهم قارات الأرض.

* في مقالته عن (ثقافة البناء) في (مفهوم الحرية وعلاقته بالمسؤولية) يرى الكاتب إن قيمنا الثقافية والإعلامية السائدة تتواصى - في الغالب - على ثقافة الصمت، وتعمل بخلاف المبدأ العُمري الحكيم: (قل يا ابن أخي، ولا تحقِرَنَّ نفسك)، ولا تزال قيمنا السيئة تغري بتأجيل المشكلات بدلًا من مواجهتها، والأخذ بالحلول التلفيقية، والاشتغال بالأعراض والنتائج بدلًا عن الأسباب والنتائج، وما زلنا نظن أن غياب رأي معارض أو ناقد أو مُستدرِك هو علامة صحة وعافية وكمال، وهذه العقلية جعلت منا (أمة نموذجية) في إخفاء الحقائق، والتنصل من المسؤولية، وهذا يستوجب إحداث تغيير

نوعي في طريقة تفكيرنا، وفي منظومة قيمنا، وفي نمط علاقاتنا، فننتقل من ثقافة الإخضاع إلى ثقافة الإقناع ونبذ العنف .

* في عددٍ من مقالاته عن (علاقة الإنسان بالزمن) حاول الكاتب أن يستجلي ملامح حاجتنا إلى رؤيةٍ واعية في استثمار الزمن بكل أبعاده، استلهامًا للماضي، وبناءً للحاضر، واستشرافًا للمستقبل، وأن يقدم رؤيته لما ينبغي أن يكون عليه التعامل مع هذه الأبعاد الزمنية الثلاثة، والرسالة المحورية لهذه المقالات تدور حول اعتقاد الناس بأن الماضي دائمًا هو الأفضل، فهم لا يكفون عن الزهو بماضيهم المجيد، مما يحوله من تاريخ حي نابض إلى تاريخ جامد مقدس، يثير (الحماس)، لكنه لا يمنح (الخبرة)، ويحرك (الهمة)، لكنه لا يقدم (العبرة)، ويُظهِر تقصير (الخَلَف)، لكنه يقنطهم من اللحاق (بالسلف)، فالأمم الراشدة تقسو على ماضيها من أجل إنقاذ مستقبلها، والأمم الضعيفة تحتمي بالماضي تهربًا من مواجهة الحاضر واقتحام المستقبل .

ومما يُؤسَف له أن حركة الفكر لدينا -في الغالب -هي حركة اجترارية للماضي فقط، فنحن سجناء الماضي بقوةٍ قاهرةٍ عابرةٍ للتاريخ، وكثيرًا ما يقع كثيرٌ من الناس أسرى حركةٍ ترددديةٍ بين الماضي بمثله وقيمه وخبراته، والمستقبل بآماله وخططه ومشاريعه، متجاوزين الواقع بظروفه وضروراته، فهم يعيشون لحظتين لا يملكون واحدةً منهما، وفي هذا إخلالٌ بمعادلة الزمن.

وعملية استشراف المستقبل هي عملية وقائية، تتوقع المشكلات وأخطارها في ضوء معطيات الحاضر، وتمكن من البحث عن سبل مواجهتها قبل أن تتعقد وتفرض واقعًا مُرًّا بكل مآسيه، وليس المهم معرفتنا بالمستقبل كزمنٍ مجرد، ولكن المهم هو الوعي بالمستقبل كواقعٍ قادم؛ بغية استكشاف كنهه، والتحكم في شكله، وأفضل طريقة للتنبؤ بالمستقبل هو المشاركة في صناعته.

ومن هذه الزاوية فإني أعد هذه المقالات محاولةً لإقناع العقول بأن أشياء كثيرة ستفوتنا لو امتثلنا للاتجاهات المعادية لاستشراف المستقبل، وبأن مجرد البقاء في المستقبل، دون نظرة علمية وأسلوب علمي في التفكير، سيكون أمرًا مشكوكًا فيه، فنحن مأخوذون بفكرة التراجع والانحدار مع الزمن، ولسنا مشغوفين بفكرة الإضافة والارتقاء والتقدم، فلا نزال نؤمن بفكرة (العصر الذهبي) الذي يكون دائمًا عصرًا غابرًا لا عصرًا مُسْتَشرَفًا، وهي فكرة ناتجة عن نظرةٍ تفترض أن التاريخ منذ انتهاء فترة الخلافة الراشدة يسير في طريق التدهور .

* أسهب الكاتب في حديثه عن النماذج العلمية التي أبدعت في تكوين مشروعاتها الخاصة؛ للتدليل على أهمية ومكانة (ثقافة المشروع) في حياة الأفراد والأمم، وأن التخلف يستوطن الواقع الذي غابت فيه (ثقافة المشروع) المتميز الخاص لدى أفراد ذلك الواقع، وكرر الكاتب نقده للتعليم المعاصر نقدًا شديدًا، واعتبره أشد المشروعات فشلًا، وطالب بإحداث نقلةٍ نوعيةٍ في محتوى التعليم

وأسلوبه، ورأى أن معيار التفوق بحاجةٍ إلى مراجعة وإعادة نظر، وعرض مقارنةً لتأكيد الفرق بين الانطلاق بالعلم والتقدم به، والبقاء في قبضة الجهل وأثقاله .

ومن المؤكد أن الأفكار والنظريات ما كانت لتخطر على الذهن لو لم يتميز نشاطنا العلمي بإيمانٍ قوي، وتفانٍ انفعالي، ووجدانٍ متحمس، وهنا تبرز أهمية وضرورة تأسيس نفسية البناء؛ إذ إن فاعلية الفكرة رَهْنٌ بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان، وما من عالمٍ حقيقي أو فيلسوف أو أديب أو مثقف إلا وهو يدرك هذا التلازم الوثيق بين الإنجاز وحب الإنجاز.

ويرى الكاتب كذلك أن رؤيتنا للعلم رؤية خاطئة، فهو عندنا إعطاء معلومات، وهو عند المزدهرين إصلاح تفكير، وإحلال تصورات صحيحة ومعارف ممحصة محلَّ تصوراتٍ ومعارف خاطئة، وهو في أعظم نظرياته محاولات مستمرة من التصحيح، وتصحيح التصحيح، فمهمة العلم ليست الإضافة فقط، فالعقل البشري قبل ظهور العلم لم يكن في حالة انتظار، فالعلم يقظة فكرية، ومراجعة شاملة، وتساؤلات موصولة، وشكوك حافزة، والعلم المحصور بإعطاء معلومات لا يقدم علمًا بروحه وفاعليته ودلالته وأضوائه وتأثيره.

إن الناس لا يفهمون طبيعة العلم، ولا يستوعبون مغزاه إلا بمقدار ما ينالون منه، فاكتشافات الإنسان وتنوع مهاراته ونشاطاته، وانفتاح آفاق العمل لديه، وبروز المخترعات، هي التي أثارت اهتمام العلم إعجابًا بنجاحاتها المدهشة، فدخلت العلوم النظرية ميدان الحياة لتأصيل هذه النجاحات، وحل مشكلاتها الدقيقة، وتوسيع نطاقها، وتنويع مجالات ارتيادها.

وإذا أردنا للناشئين أن تتوثق علاقتهم بالعلم، وأن يكتسبوا مهارات الأداء فيجب تأسيس ما اقترح (سقراط) تسميته بـ (علم الجهل)، حيث يرى أن ذلك مقدمة لطَرْد الخرافة، وإضاءة قناديل المعرفة، من أجل أن يضع الناشئة في اعتبارهم دائمًا نسبية معرفتهم مهما بلغت، ولا يخلطوا بين حفظ المعلومات وتحصيلها، وإدراك المهارات واكتسابها، وبلوغ القدرة على إتقان الأداء، مما يترتب عليه الارتقاء بالمعلومات من مستوى المادة الخام إلى مستوى الأفكار الواعية الفاعلة، والمشاريع الناجحة المتميزة، والنجاح الباهر الذي أحرزه اليابانيون يعود إلى أنهم أدركوا أن مهمة التعليم تشييد القدرة ليكون الذهن قادرًا على التعامل مع كل المتغيرات السريعة المتلاحقة، ولذلك فهم يربون أجيالهم على أساس القاعدة التي تقول: إعطاء الفرد سمكة واحدة يوفر له غذاءً مرةٍ واحدة، أما تعليم الإنسان كيف يصطاد السمك فإنه يضمن له غذاءً متجددًا ودائمًا .

* * *

وأختم هذا التطواف في ثنايا هذه المقالات الماتعة ببيت جرير الذي يقول فيه:

خَلِّ الطريقَ لمن يبني المنارَ به * وابرُز ببَرزةَ حيثُ اضطرَّكَ القَدَرُ

فهو يكشف لنا الطريق الذي يجب أن نختاره لأنفسنا، طريق رواد البحث المجتهدين، المتحمسين

لسلوك الطرق الوعرة المجهولة ليفرشوها بالضوء، ويبنوا بها منار الهداية للسالكين، فالمعرفة شديدة التمنع، لا تستجيب إلا للعاشقين الذين يديمون التعلق، أما الذين يتعاملون مع المعرفة بإعراضٍ وعدم اهتمام، فهي أكرم وأمنع من أن تنقاد لهم، فالمعرفة قيمة عالية وعيُوفة، لا تهبط إلى مستوى الهازلين والمعرضين.

أبو البراء خالد عبد الله الحوري

مكة المكرمة -جامعة أم القرى

يوم الخميس: 10 ربيع أول 1441 هـ

مقدمة الأستاذ الشاعر: أمين قائد عيشان

يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بميزاتٍ كثيرةٍ وهبها الخالق ـ عز وجل ـ له وفضله بها عن جميع مخلوقاته، ليجعل منه خليفته في الأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة: ٣٠، والاستخلاف في الأرض يقتضي التمكين فيها لخليفةٍ يمتلك كل القدرات التي تمكّنه من القيام بمهام الاستخلاف، ولذا كان خلق الانسان في حد ذاته آية من أعظم آيات قدرة الله البديع قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢١

لقد خلق الله الإنسان على أرقى مستويات البناء البيولوجي و الإبداع الإلهي في الدقة والتكوين شكلاً ومضموناً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ التين: ٤، جامعا في خلقه بين مهارات وقدرات المكون المادي للإنسان وهو الجسد، وبين قدرات ومهارات المكون الروحي والعقلي والنفسي اللامحدودة، إذ أن دماغ الإنسان يتكون من ستة مليار خلية لايستعمل منها سوى أربعة مليون خلية.

وكل هذا الإعداد الإلهي المُبهر في خلق الإنسان إنما هو اتساق مع الحكمة والغاية الربانية من استخلاف الانسان لينهض بمهامه الموكلة إليه من ربه، وهو تعبيد الحياة لله وبناء الأرض وإعمارها وفق سنن الله ومعطيات الأرض والحياة عليها ... ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل ما تزال توجيهات الله للإنسان مستمرة نحو الأداء الإيجابي لمهامه ودوره على هذه الأرض في الحياة الدنيا ورسم المسار الصحيح لمفهوم الاستخلاف المنشود والمفضي إلى أعلى مستويات الإنجاز المادي، متمثلاً في إعمار الأرض والنهوض بواجبات الحياة على الصعيد الفردي والجماعي، وكذا الإنجاز الروحي والفكري المتمثل في الارتباط النفسي والذهني بالخالق عز وجل، وربط الأعمال والتصرفات والأفكار والعلاقات بمنهج الله وتوجيهاته ...

ومن هنا تبدأ مسؤولية الانسان في بناء الذات المنتجة والإيجابية المُحقِقة للأهداف والغايات المرجوة من خلقه ووجوده على هذه الأرض.

وبين أيدينا كتاب قيّم هو (**ثقافة البناء: أفكار ورؤى مؤسِسَة للنهوض**) للدكتور/ يحي أحمد المرهبي والذي حاول فيه مشكوراً البيان والتوضيح لمفهوم بناء الذات الإيجابية، والبحث في عناصر ومكونات بناء الذات الإنسانية الفردية والجمعية وفق منهجية التشريع الرباني في القرآن الكريم، والتي رسمت ملامح الطريق القويم لبناء الحياة والذات وأساليبها الصحيحة، والاعتماد على هذه

المنهجية التى وضعها من يعلم مافي النفوس وما يصلحها وما يفسدها، وما فيه خيرها وما فيه شرها. ولذا نلاحظ كثرة الاستدلال بالآيات القرآنية التي أوردها الدكتور يحيى المرهبي كمصدر أول لثقافته وتكوين مفاهيمه الرائعة، ولكنه ـ أيضاً. أظهر في هذا الكتاب الرائع والمهم سعة اطلاعه وارتقاء ثقافته والمجهود الكبير في البحث والاستقصاء المُضني في ما كتبه الآخرون في هذا المجال من علماء الانثروبيولوجيا وفلاسفه وباحثين وأدباء، مستشهداً بمقتطفات مما قالوه.

وكتاب (ثقافة البناء) للدكتور/ يحيى المرهبي يُعد واحداً من الكتب المهمة والجديرة بالإهتمام والقراءة، والتي تهدف إلى رفع سقف الطموح للفرد والمجتمع، ووضع منهجية علمية وفكرية لتحقيق الذات البنَّاءة والفاعلة في الحياة، على مختلف الأصعدة فردياً وأسرياً ومجتمعياً، وتكوين ثقافة لا تؤمن بالمستحيل طالما أن مقومات النجاح موجودة، وتحتاج فقط الى الأخذ بالأسباب وتوظيف المعطيات والمهارات لتحقيق الأهداف، وإنجاز المهام والإسهام الفاعل والمؤثر في واقع الحياة الفردية والمجتمعية والإنسانية بصفة عامة. وهي بحق ثقافة نحن بأمس الحاجة إليها في ظل مشاعر اليأس والاحباط والإنهزامية الطاغية على نفسية الافراد والمجتمعات في عالمنا العربي.

يتكون الكتاب من (110) صفحات، والكتاب مقسمٌ بذكاءٍ شديدٍ، وخبرةٍ مهنية، واحترافٍ عالٍ للكتابة، وموزع إلى أربعة عشر فصلا، يتناول الفصل الأول منها مفهوم البناء كمدخل رئيسي لبقية الفصول، تطرق فيه الكاتب إلى مفهوم البناء الذاتي في القرآن، وأراء بعض من تحدثوا عن هذا الموضوع، كإشارات وومضات في معرض حديثه وطرحه المسهب عنه وبأسلوب ممتع وشيق لا يمله القارئ، ومن اللافت للنظر في هذا الكتاب الترتيب الموضوعي لفصوله، والربط المنطقي بين أهمية ضبط الإنسان لبوصلتة الذاتية، ليتحوَّل من إنسان تابع إلى إنسان مؤثر ومتبوع، ومن مستهلك الى منتج ومصدر، والانتقال إلى الربط بين تفاعلات الإنسان والزمن من ناحية، وبين الإنسان ومفهوم الزمن في الإسلام وطريقة التعاطي مع الزمن على أساس نوعي لتحقيق الذات، متحدثا وباستفاضة عن الحرية كواحدٍ من الشروط الأساسية لتكوين وبناء الذات، إذ أن مسلوب الارادةِ بالاستعباد أو الخوف لايمكنه أن يحقق ذاته وأهدافه في الحياة، لمحدودية المجال المتاح له للتحرك فيه، كما أنه يفقد الشعور بالمسؤولية وواجب العطاء والتأثير كفرد في واقع الحياة، فالحرية هي الأرضية المناسبة لوضع اللبنة الأولى في بناء الفرد، والحافز الأول لاستشعار المسؤولية تجاه النفس والأهل والمجتمع والوطن والدين.

ومن مفهوم البناء الذاتي واشتراط الحرية للإنسان المسؤول يتناول الدكتور المرهبي وبإسلوب منطقي ومميز العلاقة بين الحقوق والواجبات وأثرها في مستوى البناء والتعمير والارتقاء والتطور، ابتداءً من الأسرة وانتهاء بالأمة للعلاقة الوثيقة بين البناء والضمير الجمعي، مبيناً أن العلاقة بين الواجبات والحقوق في أي بناء علاقة مطردة تبدأ بأداء الواجبات للحصول على الحقوق رابطا بين الواجبات

ومستوى أدائها وبين مستوى تحقيق الهدف والبناء... لقد استطاع المؤلف أن يوضح في هذا الكتاب القيّم الكثير من العناصر المهمه لبناء الفرد والعلاقات الرابطة بين التنمية البشرية وبناء الذات، ومستوى تقدم الأفراد والشعوب ووعيهم بأنفسهم وقدراتهم، وارتباطهم بالزمن كخبرات، وعلاقة الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، فأداء الإنسان في هذه الحياة، وقيامه بواجباته الأسرية والمجتمعية والوطنية، وإسهاماته في البناء والتطوير، يبدأ من الماضي باللبنات الأولى لبناء ذاته وتطوير مهاراته وخبراته، فاليوم هو ابن الأمس، والغد هو وليد اليوم، ومتى توقف عطاء الإنسان، أو أصابه الركود، توقف به الزمن عند ذلك الحد من الوجود والبناء، لأن الانسان هو أساس التنمية ومصدرها، وأول بناء حقيقي لحضارة الأمة وتأثيرها في مسيرة الحياة البشرية يبدأ من بناء الفرد، القادر على العطاء والإنتاج، ورفد الحياة والبشر بما فيه خيرهم وإلا فإن الزمن سيتوقف بها وبهم عند مستوى البدايات الأولى من الوجود الإنساني، والانشغال بأساسيات الحياة التي تشاطرها البحث عنها أقل المخلوقات شأناً على هذه الأرض...

ويركز الكاتب حديثه في الفصول الأربعة الأخيرة عن ثقافة المشروع والتي تبدأ ببناء الفرد القادر على البناء، ثم يخصص الفصل الثاني عشر والثالث عشر للحديث عن تأسيس عقلية البناء وتأسيس نفسية البناء، ويختم هذا الكتاب المهم بالحديث عن بناء الانسان، كهدف أول لعملية البناء والتنمية... فالتنمية البشرية هي الركيزة الأولى للنهوض الحضاري بمختلف مجالاته وبدون بناء الانسان يستحيل وجود تنمية وحضارة وتظل الشعوب التي تهمل جانب الإعداد والبناء الجيد لأفرادها مجرد شعوب تابعة ومستهلكة مهما امتلكت من الثروات ...

هذه فكرة عامة ومختصرة عن مضمون ومحتوى هذا الكتاب الرائع للدكتور يحى أحمد المرهبي، جعله الله في ميزان حسناته ونفع به. مع خالص أمنياتي بالمتعة والفائدة للقارئ الكريم والله من وراء القصد

أ/أمين قايد عيشان

2019/11/3

مقدمة المؤلف:

الحمد لله المستحق للحمد والثناء، لا نحصي ثناءً عليه، فهو كما أثنى على نفسه، جلَّ شأنه وتقدَّست أسماؤه، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير ورحمة الله للناس أجمعين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آل بيته الأطهار، وصحابته الأخيار، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ... وبعد:

فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبدأ رسالته لرسوله صلى الله عليه وسلم بتشريعٍ عقابي، وإنما ببناء الإنسان وتربيته وتزكيته، فالساجد قبل المساجد، والوعي قبل السعي، والبدء بالمسجد بناءً وتوجُّهًا كان إشهارًا عامًّا داخل المدينة المنورة، وإعلامًا شاملًا لمن حولها أن هُويَّة الدولة الجديدة تبدأ بتسليم الوجهة لله، والاعتصام بوحدانيته التي ما جاءت الصلاة - التي هي مهمة المسجد الأولى - إلا تأكيدًا لها وتذكيرًا بها، فالقبلة واحدة، والأذان واحد، والإمام واحد، والصف واحدٌ متوحد، وهيئة الصلاة واحدة، وأركانها وفرائضها وسننها من لدن منهجٍ يعتمدُ على مصدرٍ واحد هو الوحي، وهكذا، كأنما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤكد أن بَدْءَ حركة أي مجتمع إسلامي في تدبير نظامه ومعاشه لا بد أن تبدأ من أسسٍ تربوية سليمة، معتمدةً على طهارة الظاهر والباطن، ونقاء المقصد، وإخلاص النية، واستقامة الصراط، وحسن التقويم، وليس هناك أفضل من المسجد في تلقين هذه الأسس، وتعاهدها خمس مرات في اليوم والليلة، بالرعاية والتوبة والإصلاح والتقويم .

ولئن كانت الدول كالأفراد ـ كما يرى ابن خلدون ـ تمرُّ بمراحل الشباب والشيخوخة والاندثار والموت، فإن (الأمم) لا تموت؛ لأن (الدولة) تجسيدٌ لروح الأمة، والجسد مجرد: صورة، شكل، طين، لكن الأمة: أصل، جوهر، روح، والأرواح لا تموت، والأمم لا تموت، خاصة تلك التي تتكئ على هرم التاريخ، وتبسط بنيانها في قلب الجغرافيا، وتعود إلى قيم روحية ضاربة في أعماق اللاوعي الجمعي لأفرادها، وَفْقَ تعبير د. محمد جميح.

ومولد الحضارة في أي مجتمع يبدأ بمولد الإنسان في ذلك المجتمع الذي تُخْلَق في أعماقه تلك الإيجابية التي تدفعه للبناء فتكون عندئذٍ الحضارة (عبد الغني عبود، الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة)، وهذا لا يعني نوعًا من التنميط للبشر، أو إيجاد مجتمع من النماذج الواحدة المتكررة، وإنما -كما فعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم -يُولَدُ مجتمعٌ كلُّ فردٍ فيه نسيجُ وحدِه، تنوعٌ في إطار منظومة واحدة، متناغمة متناسقة، رغم اختلاف أفرادها في القدرات والتوجهات والفعاليات.

والعلم هو وسيلة بناء الحضارات وازدهارها، وهو نفسه قد يكون سببًا في انهيارها وإبادتها، ومن هنا جاء الأمر الإلهي بالقراءة المقرونة باسم الرب الخالق، وليس بالقراءة المبتورة عن الخالق، قال

تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: 1)، فقراءة الكون واكتشاف أسراره وقوانينه يجب أن تكون في أحضان الإيمان بالرب الخالق، حتى إذا ما أحسن الإنسان قراءة الكون، وتعرَّف على قوانينه، فإنه يوظِّف هذه القوانين العلمية توظيفًا إيمانيًّا يسعد بها الإنسان ولا يشقى، فيكون العلم مصدر أمن وأمان للإنسان، وليس مصدر خوف وشقاء .

ومعاني الآيات القرآنية لن تُسفِرَ عن وجهها على الوجه الأكمل حتى تُقرأ في سياقها وبيئتها، وتُدرَك العلاقة بين الآية الواحدة والقرآن الكريم كله؛ لأن القرآن بناءٌ محكمٌ واحد، ونَظْمٌ متفردٌ واحد، تسري فيه روحٌ واحدة تحوِّله إلى كائن حيٍّ يخاطبك كفاحًا، ويشتبكُ معك في جدلٍ شامل يجيبُ به عن أسئلتك، كما أن موضوع القرآن مرتبطٌ أشدَّ الارتباط ببناء الإنسان، حيث إن وظيفة الإنسان، هي القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق العمل، وفقه قوانين التسخير التي وضعها الله في الكون، فالعلم هو الوسيلة الأولى لبناء الحضارات بناءً واقعيًّا في كل مجالٍ من مجالاتها، لذلك اشتغل به المسلمون، تعلمًا وتعليمًا، فتعلموا كلَّ صالحٍ مفيد، ونقلوا ما عندهم من دينٍ وعلومٍ ومعارفَ ومنجزاتٍ إلى الحضارات الأخرى .

إننا في أمس الحاجة إلى بناء إنسان التربية الإسلامية، إنسان غار حراء، ودار الأرقم بن أبي الأرقم، الإنسان الرباني الذي لا يتاجر بدينه، ولا يتخذه سُلَّمًا لأطماعه، فيُحِلُّ به الحرام، ويُحرِّمُ به الحلال، ويوثِّق به الفاجر السفيه، ويشوه به العالم النزيه، وبناء الإنسان الرباني يحتاجُ إلى مؤسساتٍ تصنعُه وتُعِدُّه ليكون رائدًا لبني قومه، هذه المؤسسات والمحاضن التربوية هي مهمة الرواد في هذه الأمة، وبوجود هذه المؤسسات سنكون قد خطونا الخطوة الصحيحة في طريق بناء الإنسان الرباني، غير ذلك سيكون جهادنا في غير عدو، وستكون صيحاتنا في فلاة، ولن يسمعنا أحد .

لقد صنع باني الرجال صلى الله عليه وسلم في مؤسسته القرآنية الرائدة رجالًا ربانيين يُشار إليهم بالبنان، ربَّاهم على عينه، وصنع منهم نموذجًا للبناة الصادقين المخلصين، بل صنع من المعاقين رجالًا وأبطالًا، فهذا عبد الله بن أم مكتوم (الأعمى) - رضي الله عنه - (معاق)، ولكنه صنع ملحمةً عظيمة، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوليه المدينة عندما يخرج للغزو، وختم حياته مجاهدًا شهيدًا في ميدان الجهاد، وهذا عمرو بن الجموح (الأعرج) - رضي الله عنه - (معاق)، يتسابق مع ابنه لا في ميادين اللهو، بل في ميادين الكرامة، ويريد أن يطأ بعَرَجَتِه الجنة، وكان له ما أراد، وهذا معاذ بن جبل - رضي الله عنه - (المعاق) كان سفيرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، وكان رائدًا في الفقه والعلم، وإدارة شؤون العباد والبلاد .. والمجال لا يتسع للتوسع في ذكر الأمثلة، فهي أكثر من أن تُحصَر.

إن بناء الرجال هو بالفعل مهنة الأنبياء ومَنْ جاء بعدهم من النبلاء، والعظمة والشموخ هو في بناء الرجال، وهي مهمة تحتاج إلى صدرٍ باتساع البحر، وعقليةٍ بعُلُوِّ السماء وارتفاعها، وقبل ذلك روحٌ دفَّاقة تحاكي منابع الأنهار على هذه الأرض الفسيحة.

وفكرة التقوى التي غرسها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في سويداء قلوب أصحابه -رضوان الله عليهم -كانت حدًّا فارقًا بين البناء والهدم، إنها فكرة عميقة تترابط فيها أطراف القصة المتعلقة بمشروع الدين كل الدين، الذي يطوي تحت جناحه الدنيا والآخرة، وملخصها في إشاراتٍ ثلاث:

1-حركة عقلٍ توفر له منظومة قناعات.

2-وحركة قلبٍ تصله بالله عابدًا متبتلًا.

3-وحركة في الواقع جوهرها نفع الناس.

إن المعنى المختزن في هذه الإشارات الثلاث ثقيل الحُمولة، إنه بناءٌ لمنظومةٍ عقلية قلبية سلوكية كاملة، لكننا الآن نلاحظ أمرًا مختلفًا تمامًا، بل بعيدًا عن روح هذه الإشارات الثلاث، لقد حصل في محاضننا التربوية نوعٌ من الانفصال في تلقينا هذا الدين العظيم، حيث تلقينا العقيدة مفصولةً عن العبادة، وكلتاهما (العقيدة والعبادة) مفصولتان عن حركة الحياة ونفع الانسان، فالإنسان مسؤول عن مدى مساهمته في خدمة المجتمع والمحيط الانساني، والإنفاق بكل معانيه وجوانبه إحدى المسؤوليات التي كُلِّف بها الإنسان، وعلى ضوئها يبني الإنسان ذاته ليخرجها من الشحِّ، ويبني مجتمعه ليخرجه من حال الحاجة والفقر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ (البقرة: ٢١٩)، الإنفاق كعملية بناء ذات دلالات حضارية، ليس حركة إحسان طارئ لإراحة الضمير، بل هو بناء متكامل تستقيم فيه الحياة بالإنفاق

وإذا كانت عملية بناء جسر، أو عمارة، أو مستشفى، أو مصنع، أو مدرسة ... إلخ، مما تقوم به الهندسة المادية، فالإنسان نفسه منذ أن يخرج إلى الحياة يظلُّ في عملية بناء بشرى مستمرة، مما يسمح لنا بالقول بأن التعليم هو (هندسة بشرية)، وقديمًا أعلن أفلاطون من خلال لافتة على أكاديميته الفلسفية، ضرورة ألا يلتحق بها أحد، ما لم يسبق له دراسة الرياضيات، في إشارةٍ واضحة إلى أهمية تكوين العقلية الهندسية، التي تضع لكلِّ شيءٍ حسابه، وكلَّ أمرٍ في نصابه.

إن الخطاب التربوي التوجيهي إلى (الصغير) هو بالدرجة الأولى عملية تكوين وبناء نفسي أساسي، كما يشير إلى ذلك (د . عبد الحميد أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي)، أما الخطاب إلى (البالغ) فهو عملية وعظ وتوجيه ذهني وعقلي، وتأسيسًا على ذلك كان أسلوب الخطاب وتأثيره في بناء النفس في مراحل الطفولة، مرحلةً إثر مرحلة، وعامًا بعد عام، وطورًا بعد طور، من أهم الأمور

التربوية التي يجب أن ندرك طبيعتها ومدى تأثيرها في بناء نفسية الطفل، وضرورة اختلاف صفات هذا الخطاب عن أسلوب خطاب البالغين ووعظهم وإرشادهم.

إن هؤلاء الصغار وأولئك الشباب بحاجةٍ إلى أن يُهتَم بهم، وأن يُعطَوا حقهم في بناء أنفسهم وبلادهم على أساسٍ من تعاليم كتاب ربهم وهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ لأن المستقبل لهم، وعلينا إعدادهم لحياةٍ غير حياتنا، وزمانٍ غير زماننا، لا أن نفعل كما فعل ولاة التعليم في زمان الفيلسوف والشاعر محمد إقبال حيث قال عنهم: " إنهم يُرَبُّون فِراخَ الصقور تربيةَ بُغاث الطيور، وأشبال الأسود تربية الخراف "، وكما أن للنفوس أحلامها فإن للعقول أحلامها كذلك، والفرق البعيد بين أحلام العقول وأحلام النفوس هو أن الأولى لا يستطيع بناءها إلا كبار الفلاسفة والمفكرين، في حين أن الثانية جزءٌ من فطرة الإنسان، وأحلام العقل صادرة عن وَعْيٍ وتفكيرٍ ورَوِيَّةٍ وتدبير، أما أحلام النفس فأطيافٌ تتجسد في رموز، ومهمة التربية بناء عقلية الإنسان ونفسيته، لتتحول أحلام العقول والنفوس إلى واقع وحقائق، وقد كان ابن باديس - رحمه الله - يؤمن بأن بناء الإنسان أصعب، ولكنه أجدى للأمة من تأليف الكتب، وأن غرس الفكرة البناءة في صدر الإنسان إيقادٌ لشمعةٍ تنير الدجى للسالكين .

لهذا كله ولغيره أُطلِقَ على صناعة التعليم (الصناعة الاستراتيجية)، وعُدَّ التعليم من (الصناعات الثقيلة)، وذلك لما يقوم به التعليم، من دورٍ خطيرٍ في صياغة الأفراد، وتشكيلهم الثقافي والعلمي، والتأثير بعيد المدى، والوصول إلى النتائج غير المنظورة، حيث تُزرَع في محاضن التربية المختلفة بذورُ مستقبل حياة الإنسان العقلية والسلوكية، فإذا لم نحسن بناء المقدمات التي نملكها بشكلٍ سليم، فسوف ننتهي إلى النتائج التي تملكنا، ولا نمتلك إزاءها أي إمكانية للتغيير، وصناعة التعليم - كما أسلفنا - من الصناعات الثقيلة والأساسية والدقيقة والاستراتيجية في الوقت نفسه؛ لأن صناعة التعليم لا تتعامل مع جوامد كسائر الصناعات، وإنما موادها الأولية هم البشر بكل مكوناتهم واستعداداتهم ومواريثهم وغرائزهم ودوافعهم وتطلعاتهم، وخضوعهم لشتى العوامل المؤثرة في بناء الفرد، فـ " التعليم صناعة، مدخلاتها ومخرجاتها من البشر ".

التعليم لا يصنع الآلة، وإنما يصنع النفس، ويُكوِّن العقل، ويمنح المهارة التي تصنع الآلة، يصنع القادة والزعماء والعلماء والآباء والأمهات والمبدعين والمفكرين، وبكلمةٍ مختصرة: التعليم يصنع الإنسان ويحضِّره للتعامل مع الحياة بشتى مجالاتها، " التعليم يتعامل مع أعقد المهمات وأخطرها وأبعدها أثرًا، لذلك فإن أيَّ خطأ أو خللٍ أو عجزٍ أو تقصيرٍ سوف تكون له نتائجه الممتدة والمتراكبة على المستويات كلها " (الأستاذ: عمر عبيد حسنة).

لهذا وجب علينا أثناء بناء الإنسان أن نعمل على تأسيس ثقافة جديدة يقوم عليها، وينطلق من خلالها، ثقافة الحياة لا ثقافة الموت، ثقافة الحوار لا ثقافة الأمر، ثقافة الفردية والجماعية لا ثقافة الفردية فقط، ثقافة المحبة والحب لا ثقافة الحقد والكره، ثقافة السماح والتسامح لا ثقافة الثأر والانتقام، ثقافة الانفتاح لا ثقافة الانغلاق، ثقافة قبول الآخر لا ثقافة إلغاء الآخرين، ثقافة البناء والإعمار لا ثقافة الهدم، ثقافة الأنا لتصبح (نحن) لا ثقافة الأنا والأنا فقط، ثقافة العلم والمعرفة لا الجهل والتخلف، هذا هو المناخ الملائم لصنع قيم جديدة على أسس الحق والخير والجمال، يقول أحد المثقفين: " إذا أردتَّ بناءَ مملكةٍ مستقرة فعليك حماية أعدائك فيها؛ لأن إسالة دمهم سيدفع العالم لهجرانك، والنظر إلى مدينتك كمحلٍّ مجهول لا يصلح لشيء " .

إنَّ لله ـ سبحانه وتعالى ـ قوانينه التي تحكم حركة الحياة في المجتمع، ومن شأن هذه القوانين أن تأخذ بهذه المجتمعات إلى مكان الريادة والصدارة، فتسود وتسود معها أخلاقياتها ومبادئها وعقائدها، وإذا كانت هذه المبادئ تعتمد في أسسها على عقائد صحيحة كان لها الخلود والدوام، وهذا ما تميزت به مبادئ الإسلام في تأسيس حضارته وبناء مجتمعاته، إنها سنة الحياة أن يكون فيها تنوع، وأن يكون فيها تغير، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بشكل واضح، ومن أجل ذلك نزل القرآن منجَّمًا، حسب الظروف والحوادث؛ لأنه كتاب بناء وتربية لا كتاب ثقافة ومتاع، جاء بمنهاج كامل للحياة والتربية، لصياغة نفوس، وبناء أمة، وإقامة مجتمع، إنه (أي القرآن) يسوق مع كل هزيمةٍ خبرة، ومع كل نصرٍ درسًا، ولكل موقفٍ تحليلًا، كما كان بناؤه مظهرًا رائعًا للخلود، مما جعله صالحًا للسير مع كل نفس، موجهًا لكل جيل، بانيًا لكل أمة؛ لتماثُل النفوس في كثيرٍ من خطوطها العامة، وتشابه الأحداث في الكثير من تفاصيلها، (محمد شديد، منهج القرآن في التربية) .

إن هدف الدين (الإسلام) كما يقول (برهان غليون) في كتابه (الدين والدولة) " هو بناء الجماعة الأهلية، أي بناء الإنسان فيما وراء الدولة وقبلها وأمامها وبعدها، ولا دولة من دون جماعة أهلية تصونها وتدرك أهميتها، ولا سياسة من دون دين يضبط خطوطها العريضة، أي من دون مستودع وخزان رئيسي للقيم الإنسانية والمثل والفضائل الأخلاقية، ولا يحسن بنا تبذير المكانة والقيمة والثروة الروحية التي تنبع من الدين، وليس لها حتى الآن - ولن يكون لها - مصدر آخر، في الممارسة السياسية والقانونية اليومية "، فها نحن وبعد عدة عقود من العيش في وهم البناء القومي، وبناء الدولة القومية الحديثة، وتحقيق الوحدة، لم يتحقق شيءٌ من ذلك، بل تحقق نقيضه، فالسيادة الوطنية تحولت إلى تبعية عالمية شاملة، والشرعية الداخلية تحولت إلى حكم القوة، والتنمية والتلاحم الداخلي تحولا إلى تنمية للتخلف والتفكك الاجتماعي، حيث تُعَدُّ عملية التحديث الجارية في عالمنا العربي (عملية تقليد للغرب) ليس إلا، من دون بناء للقوة الإبداعية من وجهة نظر (أنور

عبد الملك، تنمية أم نهضة حضارية)، بمعنى أنها نوعٌ من النشاط الاقتصادي الطفيلي، لا يسعى لتنمية القوى الإنتاجية تنميةً استراتيجية، وإنما يضع العالم العربي في إطار التبعية في جميع المجالات وعلى جميع المستويات .

وبناء المؤسسات التي تبني الإنسان أمرٌ يحتاجُ أن نُولِيَهُ أهميةً كبيرة، وأن نجمع في إقامة هذه المؤسسات بين الشكل والمضمون، فقيام المؤسسة - أي مؤسسة - وأداؤها لوظيفتها دون وجود قيمة أو مثالية (مضمون) تكمن خلف البناء والوظيفة، وتعمل على توجيهها الوجهة السليمة، لا يعني سوى شكلٍ للبناء مُفرَّغٍ من المضمون، لن يحقق غايات المجتمع، فالأهم من ذلك هو القيمة التي تكمن خلف المؤسسة والوظيفة التي تؤديها، حيث إن الاقتصار على المؤسسة فحسب (شكلًا) قد لا يعني سوى بئرٍ معطلة وقصرٍ مشيد، أي بناء بلا وظيفة، أو وظيفة دون مضمون، وهذا هو شأن الجماعات الجهادية التي صنعت تنظيمات ترفض الاستبداد المعاصر، لكنها تسعى إلى بناء استبدادٍ قديم، وكأن المستبد اليوم إذا نزع الخوذة وارتدى العمامة أصبح حاكمًا شرعيًّا وخليفةً راشدًا !!

إن عملية البناء الإنساني المنشود هي التحدي الحضاري الذي له ما بعده، ولهذا كانت عملية بناء الإنسان من الصعوبة بمكان، وكان إنجازها في ظل عوامل الهدم الكثيرة تشبه العمل الخارق، فعوامل الهدم المتعددة في عالم اليوم لم تدع للبُناة أن يلتقطوا أنفاسهم، فهي تقوِّض كلَّ أبنيتهم، وتنقُضُ كلَّ بنيانهم، وإذا أدركنا أن البُناةَ في المجتمعات قليلون مقارنةً بمن يحملون معاول الهدم أدركنا من خلال ذلك المهمة الصعبة التي تواجه مَنْ يحملون لبنات البناء، وهم من عَنَاهم الشاعر بقوله، وإن كنا لا نقرُّ تشاؤمه وإحباطه، حيث يقول:

متى يبلُغُ البُنيانُ يومًا تمامَهُ　　　إذا كنتَ تبنيهِ وغيرُكَ يَهدِمُ

فلو ألفُ بانٍ خَلْفَهم هادمٌ كفى　　　فكيف ببانٍ خَلْفَهُ ألفُ هادمِ

أتركُكم أيها القراء الأفاضل مع عناوين الكتاب التي حاولت -قدر استطاعتي -أن أجعل منها عناوين مُعبِّرة عن ثقافة البناء التي نحتاجها في البناء في أيِّ موقعٍ من مواقع المجتمع، ومن أيِّ إنسانٍ كائنًا ما كان تخصصه أو مركزه، معتبرًا هذا الكتاب (ثقافة البناء) لبنةً في التأسيس، إضافةً إلى أخويه السابقين (على بصيرة .. تأملات في الدين والحياة)، و (قد أفلح مَنْ زكاها)، سائلًا الله -جلَّ في علاه -أن يكتب لهذا العمل القبول، وأن يجد له في دروب حياتنا الفردية والجماعية مكانًا وفعلًا، وأن يجعله في ميزان الحسنات، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

أعِدْ ضبط بوصلتك .. على دائرة (التأثير) بدلًا من دائرة (الاهتمام)

يبدأ الوعي في اللحظة التي تدرك فيها أنك مسؤولٌ عن كل حياتك، بما في ذلك مشاعرك وظروفك وعلاقاتك ونجاحك وفشلك، بل جميع تفاصيل حياتك، إذ الوعي رحلة تتطلب منا الحضور بكامل حواسنا وطاقاتنا في اللحظة الراهنة .

وعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، نجد أن الوُسْعَ والطاقة هنا يعنيان (دائرة التأثير)؛ لأن التكليف يقتضي من المكلَّف القيامَ بأعمالٍ معينة في مقدوره القيام بها، والامتناع عن أعمالٍ في مقدوره الامتناعُ عنها، ومن عَدْل الله ألا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، ولن يحاسبها على ما هو خارجٌ عن وُسْعِها أو فوق طاقتها، فإذا كان فلانٌ من الناس رجلًا ناجحًا، فعَّالًا، حكيمًا، مبادرًا، فهو يوظف جهده وطاقته ووقته وماله في الأمور الواقعة في (دائرة تأثيره)، ويكفُّ عن الشكوى مما هو في (دائرة اهتمامه)، ولا سلطان له عليه، أما إذا كان غير ذلك فهو لن يكفَّ عن اختلاق الأعذار تسويغًا لتقاعسه، وسيظل يشكو ويتوجع من الظروف الصعبة والحظ الذي لا يواتيه .

ومن أقوال الحكماء في هذا المعنى: " طَلَبُ ما لا يُدرَك عجزٌ "؛ لأنه - أيضًا - خارج عن (دائرة التأثير)، وشبيه بالحكمة الآنفة الذكر قول الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئًا فَدَعْهُ وجاوِزْه إلى ما تستطيعُ

وصدَق من قال: الفاشلون ماهرون في اختراع الأعذار، والناجحون ماهرون في اختراع الحلول، ويمكننا تشبيه (دائرة التأثير) و(دائرة الاهتمام) التي يسميها البعض بدائرة (الهموم) بدائرتين بداخل بعضهما، إذا توسعت إحداهما تقلصت الأخرى، وإذا كان على الإنسان أن يهتم بالدائرتين معًا، فلْيُعْطِ (دائرة التأثير) النصيب الأوفر 80 % وأكثر، ويعطي (دائرة الاهتمام) 20% وأقل .

ولنضرب لذلك مثلًا: فلان من الناس لديه اهتمام كبير بقضايا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يتابعها، ويحللها، ويندد، ويشجب، ويتوجع، ويشكو من تقاعس المسلمين من نصرة إخوانهم في (فلسطين أو غيرها)، وفي هذا خير؛ لأنه من الاهتمام بأمر المسلمين، وقد يكون مثل هذا الشخص طالبًا، أو أستاذًا، أو أبًا، أو تاجرًا، أو طبيبًا ... و (دائرة تأثيره) الفعلية والمجدية، والتي من خلالها ينصر دينه وأمته، هي التركيز بشكل أكبر على مستواه العلمي إذا كان طالبًا، والتركيز على طلابه ورفع مستواهم العلمي إذا كان أستاذًا، والتركيز على تربية أولاده والحرص على تفوقهم إذا كان أبًا، والتركيز على تجارته وتطويرها، ليرفع من مستوى دخله، فينمي نفسه، ويساعد غيره إذا كان تاجرًا، والتركيز على مرضاه والسهر على راحتهم والعناية بهم إذا كان طبيبًا ... وقِسْ على ذلك بقية الأعمال.

وقد تجد من يعترض على مثل هذا الطرحِ، قائلًا: إن نصرة الإسلام وقضاياه تتطلب غير هذا، وهذا من قلة الوعي، وإلا فإن التركيز على ما ذُكِر آنفًا فيه خدمة للإنسان نفسه ولوطنه ولأمته وقضاياها، فالطالب المتفوق، والأستاذ المبدع، والأب المربي الفاضل، والتاجر الذكي، والطبيب المخلص .. هؤلاء وغيرهم يقدمون أفضل خدمة لقضاياهم الداخلية والخارجية .

ولا أخفيكم سرًا إن صارحتكم بأن قضايانا الكبرى التي نُولِيها (اهتمامنا) ضاعت وضعفت بسبب أننا قصرنا في (دائرة تأثيرنا)، وكان بإمكاننا أن ننصرها ونُقوّيها بتقوية ذواتنا وأوطاننا، فالطالب المتفوق يعتبر ناصرًا لقضايا أمته ومقويًا لمكانتها، وقُلْ عن الآخرين مثل ذلك .

والذي يحز في النفس أنك تجد عند البعض (اهتمامات) كثيرة، وربما ليس لهم أدنى تأثير فيها، ومع ذلك فهم يتابعونها بكل اهتمام، ويصرفون أغلب أوقاتهم وجهودهم في متابعتها والتعليق عليها وتحليلها، على حساب دوائر تأثيرهم التي بإمكانهم أن ينجزوها، وينجحوا فيها، فتجد أحدهم ـ مثلًا ـ يتهم بمشكلة التسلح النووي، أو الاحتباس الحراري، أو تطوُّر الصراع بين الكوريتين، أو التعديلات الجديدة التي أقرتها الفيفا في كأس العالم ... والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصَر .

إن الأفراد الناجحين والمجتمعات والأمم الناجحة هي التي تُوظِّف وقتها وجهدها وإمكانياتها في (دائرة تأثيرها)، ولا تضيع وقتها وجهدها وإمكانياتها في (دائرة اهتمامها) .

والناجحون يشرعون بالتعامل مع (ما هو كائن)، ولا ينتظرون حتى يتحقق (ما ينبغي أن يكون)، والحكيم يتعامل مع (الواقع)، ويسعى إلى (التغيير من خلال المُتاح)، مُدرِكًا أن الحكمة تقتضي المبادرة في (التعامل مع الممكن) قبل أن تضيع الفرصة فيصبح الممكن مستحيلًا، وإذا عملنا اليوم ما هو ممكن صار ما هو مستحيلٌ اليوم ممكنًا غدًا، تلك هي قاعدة النجاح الذهبية عند الأفراد والمجتمعات والأمم .

وكلما طغت (دائرة الاهتمام) على حساب (دائرة التأثير) صار الإنسان أقرب إلى الكسل منه إلى العمل، وأقرب إلى الفشل منه إلى النجاح؛ لأنه يستنزف كلَّ جهده ووقته وطاقته في (الاهتمامات أو الهموم)، وعندها لن تتبقى له أية طاقة في دائرة (التأثير) التي يستطيع الإنجاز والنجاح من خلالها، والأسى على أخطاء الماضي ومآسيه، وإضاعة الوقت في الرثاء لها (كدائرة اهتمام أو هموم) يشبه - كما يقول ستيفن كوفي - رجلًا لدغه ثعبان، فبدلًا من أن يبادر بأخذ الترياق (العلاج) الذي يُبطِل مفعول السم، بدأ يجري خلف الثعبان لينتقم منه، وبذلك عجَّل المسكين في سَرَيان السُّمِّ في جسمه ! فماذا كانت النتيجة ؟ لم يقتل الثعبان، ولكنه قتل نفسه !!

وأنا هنا لا أقلل من حرص المرء على الاهتمام بالقضايا العامة والكبيرة، ولكني أنبه إلى ضرورة ألا تأخذ مثل هذه القضايا نصيب الأسد، لتكون على حساب القضايا التي بمقدورنا التأثير فيها، والتي من خلالها يأتي النجاح والقوة والنصر لذواتنا وأوطاننا وأمتنا .

إنسان الحضارة .. ليس كَلًّا بل عَدْلًا

هذا الإنسان .. الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وطرد إبليس من جنته؛ لأنه رفض السجود له .

هذا الإنسان .. الذي سخَّر الله له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، وأرسل له الرسل لهدايته، وأنزل له الكتب لإرشاده .

هذا الإنسان .. مَنْ حمل الأمانة بعد أن أبتها السموات والأرض، ومَنْ منحه الله الحرية والاختيار في الطاعة والمعصية، ومَنْ قامت من أجله سوق الحسنات والسيئات، ومن أجله فُتِحت أبواب الجنة والنار .

هذا الإنسان .. مَنْ جُعِلت حرمته أعظم من حرمة البيت العتيق، وحرمة دمه أعظم من هدم أحجار الكعبة المشرفة، وجاء النص على تكريمه بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ (الإسراء: ٧٠) .

هذا الإنسان .. الذي جاءت الأديان من أجله، ولم يُخلَق هو من أجل الأديان، وعندما يبذل نفسه من أجل الدين فلأن الدين هو الذي يحفظ عليه إنسانيته، ويصله بالحي القيوم، فالأديان وسيلة والإنسان أصل .

والكليات الخمس في ديننا العظيم (الدين والنفس والعقل والنسل والمال) جاءت لمصلحة الإنسان أينما كان .

إنه الإنسان .. ذلك الكائن النحيل في كيانه، العملاق في تطلعاته، إنه مَلَكٌ هبط من العلياء، ولا يزال يذكر ماضيه (لامرتين) .

هذا الإنسان الصالح، هو صناعة الدين القويم، وثمرة الأخلاق الفاضلة، ونتيجة التربية الطويلة عبر الأيام والليالي والسنين .

لقد نشر الكاتب البرازيلي المشهور (باولو كويلو) قصةً قصيرة يقول فيها: " كان الأب يحاول أن يقرأ الصحيفة، ولكن ابنه الصغير لم يكفَّ عن مضايقته، وحين تعب الأب من ابنه قام بقطع ورقة من الصحيفة كانت تحوي على خريطة العالم، ومزَّقها إلى قِطَعٍ صغيرة، وقدمها لابنه، وطلب منه إعادة تجميع الخريطة. ثم عاد لقراءة صحيفته، وهو يظنُّ أن الطفل سيبقى مشغولًا بهذا العمل سائر اليوم، إلا أنه لم تمر سوى خمسة عشر دقيقة، حتى عاد الابن إليه، وقد أعاد ترتيب الخريطة

فتساءل الأب مذهولًا: " هل كانت أمُّك تعلمك الجغرافيا ؟ ! رد الطفل قائلًا: لا، لكن كانت هناك صورة لإنسان على الوجه الآخر من الورقة، وعندما أعدتُّ بناء الإنسان أعدت بناء العالم " .

كانت عبارة هذا الصغير عفوية، ولكنها كانت جميلةً وذات معنًى عميق، " عندما أعدتُّ بناءَ الإنسان أعدتُّ بناءَ العالم "، نعم، فالأهم هو بناء الإنسان، " الإنسان أولًا، ومِنْ ثَمَّ تأتي الدولة، وليست الدولة هي الأولى ليأتي الإنسان بعدها " .

لقد أراد الله أن تكون المبادرة في مسيرة الإيمان من الإنسان نفسه، حتى يكون الإيمان فاعلًا، متحركًا وثابتًا، وحتى يكون ثمرةً للعزم والتصميم والإرادة، قرار الإيمان قرارٌ حرٌ، لكنه قرارٌ خطير حاسم، يتوقف عليه مصير الإنسان في الدنيا والآخرة .

إننا حين نُعلِّم الانسان التفكير فإننا نُحرِّره، وعندما نُلقِّنه فإننا نضمُّه للقطيع، كما يقول المفكر البوسني المسلم علي عِزَّت بيجوفيتش .

والإنسان في أصله مخلوقٌ أبدعه الله وسوَّاه تسويةً عجيبةً قابلةً للتزكية والتدسية، وقابلة لأن يكون صاحبها ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ﴾ (التين: 4)، ولأن يرتدَّ إلى ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ ﴾ (التين: 5)، وقابلة لأن يكون كَلًّا ﴿ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ ﴾(النحل: ٧٦) ، أو أن يكون ممن ﴿ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾ (النحل: ٧٦)، فهذا الاستعداد المزدوج، وهذه القدرة المُودَعة في الإنسان، هو ما يسميه علماء الكلام (ما هو كائن بالقوة)، فإذا تحوَّل هذا الشيء إلى حقيقة واقعة فصار الإنسان في أحسن تقويم، آمرًا بالعدل، ذا نفسٍ سَمَت بالتزكية أو عكس ذلك فهذا ما يطلق عليه عندهم (ما هو حاصلٌ بالفعل) كما أشار إلى ذلك الأستاذ (جودت سعيد) .

إذا فهمنا معنى الفعالية واللافعالية فبإمكاننا أن نفهم أن الكلمة التي وردت في الآية ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾ (النحل: ٧٦)، وهي كلمة (الكَلُّ) هي الكلمة القرآنية المقابلة لمصطلح اللافعالية والسلبية، بل كلمة القرآن أدلُّ على هذا المعنى، حيث إن كلمة (الكَلُّ) لا تدل على اللافعالية فحسب، بل تدلُّ على أنه عبءٌ على مَنْ يتولاه، سواء كان فردًا أو مجتمعًا، كما أن كلمة (العَدْل) في القرآن تقابل مصطلح الفعالية بشكلٍ أدق؛ لأن الفعالية لا تشترط دائمًا أن تكون فيما ينفع، بل قد يكون المرء فعَّالًا فيما يضُرُّ، أما كلمة العدل ففعاليتها في الحق دائمًا، كما أن أمره بالعدل ذاتيُّ الانبعاث، وليس مدفوعًا إليه .

والآية تشير إلى حالةٍ يعجز فيها الإنسان عن الاستفادة والانتفاع من الشيء الذي بين يديه، وهذا ناتجٌ عن الحالة النفسية والفكرية التي يعيش عليها هذا الإنسان (الكَلُّ) الذي ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾، لا لأن الخير غير موجود، ولكن وضعه هو الذي يعجزه أن يأتي بأيِّ خير .

ومن القواعد المقررة التي لا يمكن أن يلاحظها كلُّ واحد أنه إذا أردتَّ إبطال جهد الإنسان وإيقافه عن أي عمل، ما عليك إلا أن تقنعه بعدم جدوى هذا العمل، فبمجرد أن يقتنع الإنسان بعدم جدوى عمله يكفُّ عن النشاط ويتوقف عن العمل .

إن من شروط الفعالية حدوثُ شعورٍ للإنسان أنه يملك شيئًا ما يقدمه للآخرين، وهم بحاجةٍ إليه، فحدوث هذا الشعور عنده يكون سببًا لفعاليته ونشاطه، ويمكن أن يتضح ذلك إذا نظرنا إلى العكس، وهو أن الإنسان إذا لم يكن عنده شيءٌ يقدمه للآخرين، أو على الأقل ما يُشعِرُه بمساهمته معهم فإن ذلك يصيبه بالانطواء والخمول، بل قد يبلغ به الأمر إلى درجة أن يفقد كلَّ مُبرِّرٍ لوجوده، ولكلِّ سَعْيٍ أثره وإن قلَّ؛ إذ هو يساهم في بناء التقدم والنهضة، تمامًا كما تساهم القشة الصغيرة في بناء عُشِّ الطائر إبان الربيع .

وفي قصيدته (دور الإنسان في التاريخ) يبرز المفكر الباكستاني (محمد إقبال) هذا الدور الخطير عبر محاورته الداخلية التي يحاور فيها الإنسان خالقه وخالق الكون:

أنت خلقتَ الليل .. وأنا صنعتُ المصباح

أنت خلقتَ الصلصال .. وأنا صنعتُ الكوب

أنت خلقتَ الصحاري والجبال والغابات ..

وأنا زرعتُ البساتين والحدائق والأرائك

أنا الذي صنعتُ المرآة من الحجر ..

وأنا الذي حولتُ السُّمَّ إلى شرابٍ نافع

أيها الإنسان:

وتحسَبُ أنك جُرْمٌ صغير وفيك انطوى عالمٌ أكبرُ

وعندما أراد الصينيون القدامى أن يعيشوا بأمانٍ شيدوا سور الصين العظيم وقالوا: لا يمكن لأحدٍ أن يقتحمه أو يتسلقه، وخلال المائة سنة الأولى لبنائه تعرضت الصين للغزو ثلاث مرات، ولم تكن جحافل الغزو على الأرض في حاجةٍ لتسلق السور، بل دفعوا رشوةً للحارس ودخلوا من الباب، لقد نسي الصينيون القدامى أن يبنوا الحارس (الإنسان)، وانشغلوا ببناء السور !

وحكمة الحياة تقول لنا بوضوح: إذا أدرت أن تزرع لسنة فازرع قمحًا، وإذا أردت أن تزرع لعشر سنوات فازرع شجرة، أما إذا أردت أن تزرع لمائة سنة فازرع إنسانًا كما في المثل الصيني .

الواجبات أولًا .. وأساساً لتحصيل الحقوق

سأغرد في هذا المقال خارج السرب، وسأسبح عكس التيار، فالحديث عن الحقوق وأهميتها ومكانتها يصم الآذان، سواء كانت حقوقًا للإنسان أو للطفل أو للمرأة أو للأقليات أو غيرها من الحقوق، أما الواجبات في هذا العصر فقد صار حالها كحال (حمزة) - رضي الله عنه - بين شهداء أُحدٍ لا بواكي له .

لقد صار الحديثُ عن الحقوق مفتاحَ التواصل مع الغرب ومنظماته، وموضةَ الحديث عن التمدن والتحضر والتقدم كما أصبح للحقوق دعاةٌ ومراكز ومنظمات وهيئات بعكس الواجبات التي لا تكاد تُذكَر، وحتى لا أُتهمَ بأني ضد الحقوق سأسارع إلى القول بأني لستُ ضِدَّ الحقوق المشروعة المكافئة للواجبات، وإنما أنا ضد الحقوق الانتهازية والابتزازية، أو غير المكافئة للواجبات، مع تأكيدي على أن الواجبات لا بد أن تتفوق على الحقوق إذا أردنا خروجًا من الواقع المُرِّ واستشرافًا للمستقبل المشرق المرتقب .

ومن الجميل حقًّا أن يحصل المرء على (حقوقه) التي يُطالب بها، ولكن من المؤسف حقًّا أن نقلب نظام القيم، فنقدم (الحقوق) على (الواجبات)، فذلك يزيد نسبة التخليط والقلق والفوضى في حياتنا كما يقول المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، والذي سنقبس الكثير من أفكاره في هذا المقال؛ لأن له رؤيةً ثاقبةً فيما يخصُّ العلاقة بين الواجبات والحقوق .

ولما كان الحقُّ لا يصل إليك إلا إذا أدى الآخر واجبه فإننا إذا بدأنا بطريق أداء الواجبات فستتحقق حقوقنا، أما إذا لم نؤدِّ واجباتنا، وانتظرنا حقوقنا، فإنها ستبتعد عنا كثيرًا، ومن جهةٍ أخرى فإن طريق المطالبة بالحقوق يؤدي إلى التنازع، أما طريق أداء الواجبات فيؤدي إلى التقارب، فيُؤثِر بعضهم بعضًا، ويتسابقون في فعل الخيرات، وكلمة (الواجب) على الصعيد السياسي في الغالب تُوحِّدُ وتُؤلِّف في حين أن كلمة (الحق) في أحيان كثيرة تُفرِّقُ وتُمزِّق .

وقد كان (غاندي) يدين منذ بَدْءِ حياته السياسية بفكرةٍ تكوينية عن (الحق) حيث يرى جذوره في (الواجب)، وبالتالي فقد اختار الواجب على أنه الأصل، ونحن ندرك أهمية هذا الاختيار وتأثيره الخطير الحاسم، ليس فقط على المرحلة الثورية، وإنما على عصر البناء الاجتماعي الذي جاء بعدها، فلقد وفَّرَ الشعب الهندي على نفسه عِبْءَ أزمةٍ أخلاقية حين ارتبط كفاحه من أجل الاستقلال بطريق الواجب تحت قيادة (غاندي) وقد دُعِيَ (غاندي) مرةً لحضور مؤتمر عن (الحقوق) فاعتذر عن الحضور، وأخبرهم بأنه سيحضر عندما يكون هناك مؤتمر (للواجبات) .

إن هناك أسلوبين للحصول على الحقوق كما يقول المفكر السوري (جودت سعيد) هما:

الأول: هو الأسلوب الذي يُعلِّم الناس واجباتهم، وهو أسلوب الأنبياء عليهم السلام .

والثاني: هو الأسلوب الذي يُعلِّم الناس حقوقهم، ويدعوهم للمطالبة بها، وهو أسلوب الحضارة الحديثة .

إن الواجب يسبق الحق دائمًا، بل هو أساسه، فأساس تكريم الله للإنسان هو قبوله بالالتزام الحر بحمل أمانة الخلافة في الأرض، ولذا فإن الواجب الأول على القوي هو تحاشي سَلْب حرية الضعيف، والواجب الأول على الضعيف هو إزالة أسباب الضعف؛ لامتلاك دَفْع مَنْ يصولُ على حرمة حريته، كما أن (الواجب) هو لُحْمة النسيج العلائقي في المجتمعات والمؤسسات، وهو المحور الذي يتمحور حوله إنجاز الدول والحضارات .

(إن الحقوق تُؤخَذ ولا تُعطَى !)، لحاها الله من كلمةٍ تُطرِب وتُغري، (كما يقول مالك بن نبي)، فالحقُّ ليس هديةً تُعطَى، ولا غنيمةً تُغتصَب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدَّلَ وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي نحو الواجب، وإنها لشرعة السماء " غيّر نفسك، تغير التاريخ ! "، ألا ما أغراها من كلمة (المطالبة بالحق !)، إنها كالعسل يجذب الذباب ويجتذب الانتفاعيين، في حين أن كلمة (الواجب) لا تجتذب غير النافعين .

لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، " إننا نريد حقوقنا ولو مع جهلنا وعرينا ووسخنا "، وأصبح أداء الواجب في كثيرٍ من الأحيان يتمثل بالخطب والشعر بدلًا من الفعل والإنجاز، وأصبحت اللفظية أحيانًا بضاعةً رائجةً في سوق الثقافة، ومع ذلك ينبغي أن لا يغيبَ عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على (الحق) في كلِّ تطورٍ صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائمًا محصولٌ وافر، أو بلغة الاقتصاد السياسي (فائض قيمة)، هذا (الواجب الفائض) هو أمارة التقدم الخلقي والمادي في كلِّ مجتمعٍ يشُقُّ طريقه إلى المجد .

والحقُّ أن العلاقة بين الحق والواجب هي علاقة تكوينية تفسر لنا نشأة الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصورها مُنفصِلةً عن الواجب، وهو يُعَدُّ في الواقع (أول عملٍ قام به الإنسان في التاريخ)، فالسياسة التي لا تُحدِّثُ الشعبَ عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه ليست سياسة، وإنما هي (خرافة)، أو هي تلصُّصٌ في الظلام، وليس من مهمتنا أن نعلِّم الشعب كلماتٍ وأشعارًا، بل أن نعلِّمه مناهجَ وفنونًا .

وحسب تركيز أي مجتمع على مفهوم (الواجب) أو على مفهوم (الحق)، تكون معادلته الاقتصادية إيجابيةً بفائض الإنتاج على الاستهلاك، أو متعادلةً إذا استوى الطرفان، أو سلبيةً إذا كان الاستهلاك

أرجح في الميزانية. ففي الحالة الأولى يستطيع المجتمع استثمار فائض إنتاجه في العمليات والميزانيات المقبلة فهو مجتمعٌ (نامٍ)، وفي الحالة الثانية فإن كفتَيْ ميزانه متعادلتان، فلا ترجح واحدة على الأخرى، فهو لا يصعد ولا يهبط، فهو مجتمعٌ (راكد)، أما في الحالة الثالثة فكفة استهلاكه أرجح، لا يصعد ولا يستقر، فهو مجتمعٌ (ينهار)، فإذا كان الواجبُ متفوقًا على الحق كانت النتيجة إيجابيةً، أي فوق الصفر، وإن كان الحقُّ متفوقًا على الواجب، كانت سلبيةً، أي تحت الصفر، وإن كانا متساويين كان الناتج صفرًا .

إن التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة - في أبسط معنى الكلمة - الواجبات الخاصة بكل يوم، وبكل ساعة، وبكل دقيقة، وليس في معناها المعقَّد كما يُعقِّده عن قصد أولئك الذين يعطِلّون جهود البناء اليومي بكلماتٍ جوفاء، وشعاراتٍ كاذبة، يُعطِّلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة. ولكلِّ جهدٍ ثمرته في الميدان الاجتماعي، ومتى تجمعت الثمرات بصورةٍ إيجابية، وجدنا أن أداء الواجب أعظم أثرًا من المطالبة (بالحق) .

إن واجبنا هو أن نبذل جهودًا ضخامًا في جميع الميادين، وأن نقوم بكثيرٍ من الواجبات لكي نصل إلى حقوقنا التي ستصبح حينئذٍ مشروعة، كما أن علينا التركيز على إنسان الواجبات، لا إنسان الحقوق .. إنسان البقاء والخلود بالعمل والإنتاج، لا إنسان الزوال والاستمتاع والاستهلاك، وعلينا تعميق اتجاه القيام بالواجب؛ لأن المجتمع الذي تعلَّم أن يقوم بواجباته سوف تنشق السماء وتعطيه حقوقه، فالحقوق لا تُؤخَذ ولا تُعطَى، بل هي ثمرة طبيعية للقيام بالواجب، والمجتمع الإسلامي هو مجتمع الواجب لا مجتمع الحق بالدرجة الأولى .

فقه السنن الربانية .. من الفهم إلى التسخير، ومن الإدراك إلى التوظيف

كثيرون هم مَنْ لم يفهموا دروس التاريخ، ولذلك اضطروا لإعادتها، وكثيرون هم مَنْ لم يعتبروا بسُنَنِ الله فيمن سبقهم، ولذلك أصبحوا عِبْرةً لغيرهم، وكثيرون هم مَنْ لم يدركوا أن النهايات هي زَرْعُ البدايات، وكثيرون هم مَنْ لم يعلموا أن المخرجات هي خلاصة للمدخلات، وكثيرون هم مَنْ لم يخطر ببالهم أن النتائج هي حصاد وثمرة المقدمات، ومثل هؤلاء لم يفقهوا إشارات الله من خلال سننه في الآفاق والأنفس، فكان لزامًا عليهم أن يتجرعوا مرارة تكرار التجارب، ومآسي إعادة الدروس حتى يفهموا، هذا إن كان هناك متسعٌ من الوقت لهذا الفهم ولهذه العبرة .

إن اكتشاف السنن والوعي بقوانين حركتها هو الذي يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادرًا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها، في حين أن غفلة هذا الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذي يجعله ضحيةً لهذه القوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ولو كانت نوايا هذا الإنسان حسنة، وعاش غارقًا في بحار الأمنيات والأحلام والأدعية والتوسلات، يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النساء: ١٢٣)، واكتشاف السنن الربانية لا يتم على نحوٍ مُبْتسِرٍ ومتعسف، وإنما ضمن سياقاتٍ يبينها الوعي وتنميها الممارسة .

وفقه السنن الربانية خطوة من خطوات الانتفاع بها والاستفادة منها، وإذا كنا نقول في مجال الحكم على الأشياء: إن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، فيمكننا أن نقول كذلك في ميدان السنن: إن فهمها طريقٌ إلى (تسخيرها)، وإدراكها سببٌ إلى (توظيفها)، وإلا فأنَّى لإنسانٍ كائنًا مَنْ كان أن ينتفع بشيءٍ لا يدرك كنهه، ولا يسبر غوره، ولا يعرفه على حقيقته، وكثيرًا ما يُشكِّل اكتشاف السنن مخرجًا (لفقه الطرق المسدودة)، وهو فِقْهٌ عظيم يوفر علينا الكثير من الجهود والأوقات والأموال لنصرفها في وجوهها الصحيحة والمثمرة .

إن أول شرط من شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية، في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو (أن نفهم أو نفقه فقهًا شاملًا رشيدًا هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ (فقه السُّنَن)، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية)، ولبُّ العلم وحقيقته هو كشف السنة، وعلى أساسها يكون التسخير، وعلى أساسها يتم استخلاف الإنسان في الأرض .

إن السنة تَجْسُرُ (تردم) العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وحين نكتشف سنة الله في مجالٍ ما فإن ذلك يعني سهولة فهم الماضي والحاضر، كما يعني استشرافًا حسنًا للمستقبل، (د .

عبد الكريم بكار)، وحين نتجاهل وجود السنن التي تحكمنا وتحكم الوجود من حولنا فإن أخطارًا كبيرةً سوف تحيط بنا .

فحين لا ندرك مثلًا أن السنة في التحول الاجتماعي هي (التَّدرج)، وليس (الطَّفْرة) فإننا سوف نعتمد أساليب ووسائل تخالف الفطرة وسنة التدرج وسيؤدي ذلك إلى الاصطدام بالسنة وسنحصد عاقبة ذلك تمزقًا وتخلفًا .

وحين لا نتعلَّم من السنن التفريق بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون فإن النتائج ستكون سلسلةً من المفاجآت والآلام والهزائم .

وسنن الله سبحانه وتعالى تتسم بثباتها وباطرادها عبر الزمان والمكان، فهي لا تتغير ولا تتبدل، وتلك السنن الإلهية بذلك الثبات والاستقرار كوَّنت فطرة الله التي فطر الله الناس عليها، وكانت جزءًا من مكونات عقل المسلم، تساعده في التعامل مع الكون وفهمه .

ومِنْ هنا يقول أحد مفكري الأمة وروادها فيما يشبه الاختزالات العميقة للتجارب البشرية: (لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلَّابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد)، إننا نهدف من وراء معرفة سنن الله في الخلق أن نسخرها، ونتجنب الاصطدام بها .

والسنة ـ حسب تعبير القرآن الكريم ـ لها سمتان: عدم التبدل، وعدم التحول، أي أنها تتكرر دائمًا، فهي هي، ثم ثباتها بعد تكرارها، فهي تحدث وتمشي إلى نهايتها بدون تحوُّل يحرف مجرى سيرها ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر: ٤٣) .

والسنة كما عرفها العلماء هي " أن يُفعَلَ في الثاني مثل ما فُعِلَ في الأول "، والإسلام يأمر الإنسان بالتنقيب عن سنن الله في الكون وتفهمها، ليس فقط فيما يتعلق بالسنن التي تتشكل منها العلوم الطبيعية فقط، بل، بذات الدرجة، السنن التي تشكِّل جمال الطبيعة ونظامها العام أيضًا كما يقول د . إسماعيل الفاروقي .

وإذا أراد الإنسان الانسجام مع الكون فليس بحاجة إلا إلى الانضباط بقانون نفسه (الفطرة) التي استودعها الله سبحانه وتعالى فيه، من خلال الانضباط بقانون الله سبحانه وتعالى المسطور في (القرآن الكريم)، وبهذا تكون الصورة متكاملةً متناغمةً يتوافق فيها مستودع (الفطرة) مع الكون (المنظور) مع الكتاب (المسطور)، ذلك أنها تصدر عن قرارٍ واحد وقانونٍ واحد، فعندما نُوفَّق في العمل بالقانون المسطور نأتي الكون المنظور بما أمر خالقه أن نأتيه به، وهذا مبعث فعالية الثقافة السُّنَنِية وتأكيد على أساسها المعرفي الإيماني، (د . عمار جيدل) .

إن الوعي المطلوب والمراجعات المطلوبة هي التي تحاول فهم سُنَنَ الكون والبشر، وطبيعة السياسة والاجتماع، لنبصر بها أين أخطأنا ؟ وكيف نمتلك القوة ؟ وكيف نستعملها برُشْدٍ وحكمة ؟ ونحوطها بقوةٍ سياسية واقتصادية وإعلامية؛ لِنُغالِبَ بها الذين قهرونا، واحتلونا، وأكلوا لحومنا، وشربوا دماءنا، وهرسوا أطفالنا، وأذلوا بناتنا .. إن الوعي المطلوب هو وَعْيُ السُّنن، وليس تقديم التنازلات من ديننا على مذبح الحداثة الغربية؛ لننال منها بعض الرضا، ثم نأمل في أن تُنعِمَ على بلادنا بحريةٍ كالتي عندهم كما أشار إلى ذلك المؤرخ المصري (محمد إلهامي) .

إن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حدٍّ كبير؛ لأن وراءها سُننًا ثابتة تحركها وتكيفها، وهو ما عَنَاه العربُ بقولهم: (ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة !)، وعبر عنه الغربيون بقولهم: (التاريخُ يُعِيدُ نفسه)، وأفصح عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٠)

وقد أشار القرآن إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمال نتيجةً لتشابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (البقرة: ١١٨)، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ (الحشر: ٢) ، أي: قيسوا أحوالكم بأحوالهم، فالسُّنَنُ التي تحكمهم وتحكمكم واحدة، ولن يكون الاعتبار إلا بعد هضم تجارب السابقين وخبراتهم حتى نفهم عِلَلَ تقدمهم وتأخرهم، فنضيف كلَّ ذلك إلى خبراتنا .

وتسألني: لماذا طُرِدْنا من الأندلس ؟ ! فأقول لك: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (يونس: ٤٤)، ثم أقول لك: لنتأمل عبرة التاريخ، فقانون سقوطنا يقول: حين يبحث كلُّ عضوٍ منا عن نفسه تسقط سائر الأعضاء، يقول أحمد معاذ الخطيب: إن المقدمات غير الصحيحة لا تثمر إلا عواقب وخيمة، وسنن الله لا تحابي أحدًا، وعلى المؤمنين ألا يقعوا في فخاخ الجهل السُّنَني، والمقصود بـ " الوعي السُّنَني " هو الإدراك الحقيقي للأنظمة والنواميس والقوانين

الثابتة التي أودعها الله تعالى في كلِّ مُفردةٍ كونية؛ لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام، والانتقال بهذه السنن من دائرة الإهمال إلى دائرة الإعمال .

وهذه السنن مترابطة يخدم بعضها بعضًا بشكلٍ مُطَّردٍ ثابتٍ مستمر لا يتبدل، ولا يتغير، ولا يتحول، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر: ٤٣) ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٧)، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٧)، أي: مضت قوانين إلهية مما سَنَّه الله من السُّنَن التي تجري على خلقه وبإرادته وقدرته، ومنها ما هو خاصٌّ بالأنبياء والمرسلين، ومنها ما هو خاصٌّ بالمؤمنين، ومنها ما هو عامٌّ في شئون الأمم وتقلباتها نحو الوحدة والتفكك، والتحضر والتخلف، والسعادة والشقاء، وهذه حقائق واردة في الكتاب لا يعرفها إلا عالم بهذا الكتاب، ومَنْ اكتشفها استطاع أن يعرف الحاضر ويتحسس المستقبل، وأن من سننه تعالى أنه جعل العاقبة للمتقين وجعل النهاية تدور على المكذبين الظالمين، (د . مجدي عاشور) .

والسُّنَن التي تحكم حياة الفرد غير السُّنَن التي تحكم حياة الجماعة، وهذا يعني أن مصالح الفرد قد لا تتطابق دائمًا مع مصالح الجماعة، وهنا يكمُن جوهر الابتلاء في الحياة الاجتماعية، فشأن الباطل لا يثبت أمام الحق، كما يقول (د . البوطي)، فإن أحكام الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها، وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها، وحكم الحق هو الثابت بذاته، فلا يُغلَب أنصاره ما داموا معتصمين به، مجتمعين عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، كأنه يقول: انظروا في سُنَن مَنْ قبلكم تجدوا أنه ما اجتمع قومٌ على حق، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم، وأعدوا لكلِّ أمرٍ عُدَّته، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرته، إلا وظفروا بما طلبوا، وعُوِّضُوا بما خسروا، فحوِّلوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم، وولُّوها جهة ما يستقبلكم، وانهضوا للحق بالعزيمة والحزم، مع التوكل على الله، وكثيرًا ما يكون أهل الجهل أقوى من غيرهم في التمسك بباطلهم حتى ولو علموا ما صار إليه نظراؤهم وأقرانهم السابقون؛ لأن الجهل يعمي عن رؤية الحق .

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٧)، يتبين له أن المعنى فيها يقول: انظروا إلى مَنْ تقدَّمكم من

الصالحين والمكذبين، فإذا أنتم سلكتم سبيل الله فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم، وفي هذا تذكيرٌ لمن خالف النبيَّ صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، ففي الآية إشاراتُ أمنٍ وإشاراتُ خوف، فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوهم، ينذرهم عاقبة الميل عن سنته، وبيَّن لهم أنهم إذا ساروا على طريق الضالين من قبلهم فإنهم ينتهون إلى ما انتهوا إليه، فالآية خبرٌ وتشريع، وفي طيّها وَعْدٌ ووعيد .

إن السُّنَنَ الإنسانية ليست جبريةً بل طوعية، مَنْ شاء حفظ دينه حيًّا متجددًا، ومَنْ شاء أسلم دينه للموت، ومَنْ شاء دارت عليه دورة الرقي والانحطاط كما يشير إلى ذلك (د . حسن الترابي)، فتلك سنة الله لمن كسب عِلَّة القلب باختياره وسار متماديًا، تتيسَّر له سنة الله ليزداد عِلَّةً، ومَنْ كسب صحة القلب وصابر تيسَّر له ذلك فازداد إيمانًا، وطبقًا للقرآن الكريم فقد خُلِق الرجال والنساء لنفس الغرض، واشتركوا في التكاليف التي تأهَّلوا لها، ويتعرضون لنفس السنن الكونية، وسيحاسبون في الآخرة بنفس المقاييس، (د . مراد هوفمان) .

ومع أن الأسباب فاعلة بحكم أن سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير، فإنها محكومة في نهاية المطاف بإرادة الله التي لا معقِّب عليها، وكلُّ ما في الوجود من خلق الله، فإن مصيره إليه، والإنسان كائنٌ عابدٌ حرٌ مسؤولٌ مستطيعٌ بفطرته، وبتلمُّسه لأسباب الاستطاعة في كونٍ قابلٍ لتلقِّى فعله فيه، فمن سنن الله في الخلق أن كلَّ شيءٍ ينشأ تحت الضغط ينال حظَّه من التشويه، ومن سنن الله في الخلق أن تكون المعاناة الأساسية لكلِّ واحدٍ منا شيئًا من صنع يديه، ومن سُنَنِ الله تعالى في الخلق أنه لا يستطيع أحدٌ أن يفعل بالآخرين أسوأ مما يمكن أن يفعلوه بأنفسهم، ومن السُّنَنِ الحضارية أن مَنْ يعيش خارج دائرة الفعل لا بُدَّ أن يتضرر من انعكاسات ردود الفعل التي تفتقر غالبًا إلى المبادرة، والاتزان، والوعي الجيد، هذا ما يؤكده (د . عبد الكريم بكار) .

ولذا فالواجبُ علينا أن نعتمد ثلاث آليات نفسية ذكرها (د . خالص جلبي)، ثلاثًا بثلاث: التحرر من العنف يحرر من الخوف، وتأكيد مفهوم السُّنَنِية يحرر من الخرافة، والإيمان بلا إكراهٍ في الدين يحرر من المنازعات، ويمكننا في نهاية هذا المقال أن نخلُصَ إلى أن للسنن الربانية خصائص واضحة يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

1- أن السُّنَنَ الربانية (ثابتة) لا تتغير ولا تبدل .

2- أن السُّنَنَ الربانية (حاكمة) لا تحابي ولا تجامل .

3- أن السُّنَنَ الربانية (مُطَّرِدة) لا تتوقف ولا تتأجل .

4- أن السُّنَنَ الربانية (عامة) لا تنتقي ولا تنتخب .

أن تكون حرًا يعني أن تكون مسؤولًا

" مَنْ كَبُرَت له كَبُرَت عليه ". بهذه العبارة نخاطبُ الشخص الذي حصل على مكانةٍ أو منزلة اجتماعية أو سياسية، ونحن نقصد بهذه العبارة أن مَنْ مُنِحت له صلاحيات أكثر (حرية)، تحمَّل بالمقابل واجبات والتزامات وأدوار أكثر (مسؤوليات)، فالغُنم بالغُرم، كما نقول في أمثالنا، والإنسان في الرؤية الإسلامية يولد حرًّا، ومِنْ أميز ما يميزه عن غيره من الكائنات الأخرى هو حريته، فلا يجوز له ولا لغيره تجاهلها؛ لأن الحرية ليست حقًّا، بل هي واجب؛ ولذلك فالإنسان - دون غيره من الكائنات الحية - يعتبر مسؤولًا لا عن إرادته في الحياة فقط، بل عن حريته أيضًا، إن الإسلام ينظر إلى الحرية على أنها حقٌّ إنساني فطري، وأنها عطية إلهية للإنسان لا يجوز العدوان عليها .

ومن المعلوم أن مَنْ تمَّت تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي فإنه أيضًا عرضة لاستباق الغير إليه وتربيته على الاتباع أيضًا (أي يصير تابعًا لمن رباه)، مثلما فعل قادة التطرف مع الناشئة من الشباب، على عكس التربية على المسؤولية التي تُنتج أفرادًا قادرين على الإدراك واتباع الصواب وتجنب الخطأ، مما يراه نابعًا من ذاته. كما أشار إلى ذلك د . طارق الحبيب .

والمواطنة في إحدى معانيها هي علاقة بين الحرية والمسؤولية كما يعرفها د . الكواري بأنها " علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجباتٍ وحقوقٍ متبادلة، وتدلُّ ضمنًا على مرتبةٍ من (الحرية)، وما يصاحبها من (مسؤوليات)، كما أن الأمة التي لا يشعر الكلُّ فيها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية، وأن مَنْ تربى تربية العبيد لا يُنتظَر منه في المستقبل أن يكون مدافعًا عن الحرية، والذي تأصلت فيه روح العبودية لا يمكن أن يُقدِّر الحرية الصحيحة حقَّ قدرها، فهو ممن يتملَّكه الهياج والرغبة في التخريب إذا وقعت الفتنة، فإذا فُرِضَ عليه الإرهاب من قبل السلطة فإنه يخضع ويستكين " .

إن حق الحرية بمعناها الإيجابي المنتج مقصورٌ على أولئك الذين يعلمون، أو هكذا تقتضي الحكمة بأن يكون، فالحرية لا تكون إلا لمن يعلم حقائق الميدان الذي يريد أن يكون فيه حرًّا، وبناءً على ذلك فإن الحرية مرتبطة بمعرفة الميدان الذي يكون الإنسان حرًّا فيه، على شرط أن يقف عند حدود ما ينفع وما لا يضر الآخرين كما يؤكد ذلك د . زكي نجيب محمود .

إن الحرية لَمِن أشرف مقاصد كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) كما فصَّل الدكتور عليان بوزيان، وسنقبس بعضًا مما أورده لما له من دلالةٍ على مفهوم الحرية، وعلاقة هذا المفهوم بالمسؤولية،

فالعبودية إنما هي لله، ثم الخلق بعد ذلك أحرار مع مَنْ سواه، فالخضوع والطاعة والرغبة والرهبة هي لله وحده الذي له الخلق والملك والأمر والحكم .

والحرية في التصور الإسلامي ثمرةٌ لعقيدة التوحيد التي تغرس في نفوس الموحدين اليقين الجازم بأن (لا إله إلا الله) يُخاف ويُرجى، و(لا إله إلا الله) يُجتنَب سُخْطه، ويُلتمَس رضاه، في فضله يُطمَع، ومن قوته يُستمَد، وإليه يُتودَّد، وإليه يُحتكَم، وبه يُعتصَم؛ كونه لوحده هو الضار والنافع .

والحرية في التصور الإسلامي أمانة، والتزامٌ بأن نمارسها ممارسةً إيجابية، وهي داخلة في جملة غايات الشريعة التي يجمعها تحقيق المصالح الكبرى للبشرية، وهي مصنَّفة إلى ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات، وفي الصنف الأول حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال (الضرورات الخمس)، وهي في الإطار العام لحقوق الإنسان في الاعتقاد والحياة والتعليم والحرية والتعبير، وإقامة أسرة، وحقوق اقتصادية واجتماعية، (د . راشد الغنوشي)، وعليه فإن قيمة الحرية في الإسلام غاية لا بُدَّ أن تسعى السلطة الحاكمة إلى تحقيقها .

وخطة الإسلام في تحرير الناس تنطلق بدايةً بتحرير ضمائرهم ووجدانهم بغرس الشعور بالكرامة فيهم، حتى إذا ما استقر ذلك في نفوسهم كانت الاستجابة إلى التشريع امتثالًا وطواعية، ويزيد في تثبيت هذه الحرية وتأكيد الإسلام عليها تدريبُ المسلمين على ممارستها في صورة العبادات المقررة في الفروض العينية والكفائية، إشعارًا للناس بقدسيتها، وتمكينًا لها في نفوسهم، وبهذا تُكيَّف الحرية بأنها هبة الله وقَدَرُ الإنسان الذي تميز بها عن كلِّ مخلوقٍ كضروريات وحاجيات أولية للإنسان تقتضيها فطرته؛ ولذلك قررها الشارع في صورة تكاليف وواجبات آمرة؛ ضمانًا لقوة الإلزام بها، واستجابةً لتلك الفطرة، يقول الإمام علال الفاسي: " الحرية جُعْلٌ (حق) قانوني، وليس حقًّا طبيعيًّا، وأنه (أي الإنسان) لم يُخلَق حرًّا، وإنما ليكون حرًّا " .

والإسلام يُعَدُّ ثورةً تحرريةً شاملةً للإرادة الإنسانية من كلِّ عبوديةٍ لغير الله، مما يجعلها بحقٍّ أمانةً مُرتَّبةً لمسؤوليةٍ ووعي بالحق والتزامٍ به وفناءٍ فيه، ومِنْ ثَمَّ حق القول إن التكليف (المسؤولية) هو أساس الحرية وعلامتها، وأن الإنسان الجدير بصفة الحر هو المؤمن بالله، فكلما زاد الإنسان إخلاصًا في العبودية لله زاد تحررًا من كلِّ مخلوقٍ في الطبيعة، وحقَّقَ أقدارًا أكبر في درجات الكمال الإنساني، ولكن هذه الحرية التي يمنحها الإسلام (حرية مسؤولة) لها تبعات، وهنا يفترق الإسلام عما سواه من المذاهب التي تجعل من هذه الحرية (فوضى) في الفكر والسلوك، إن حرية الإنسان في الإسلام تقتضي أن يتحمل هذا الإنسان مسؤوليته كاملةً في كل ما يصدر عنه من حركاتٍ وسكنات، وهو ما يؤسس معنى الجزاء والثواب والعقاب، وهذا أمرٌ من شأنه أن يَحمِلَ الإنسان على الاستخدام الأحسن لحريته .

والناس أحرار ضمن (حدود المسؤولية) الاجتماعية على النحو الذي حددته الشريعة الإسلامية. كما يؤكد على ذلك (د. عبد الكريم بكار)، وأي نظام يُخضِعُ البشر للعبودية أو يعطيهم حريةً لا مبرر لها، تتجاوز القيود المفروضة من قبل الخالق نفسه، والمبينة من خلال الشريعة الإسلامية، هو في صراع مع الكرامة الإنسانية التي تتجسد في مفهوم خلافة الإنسان، ولا يستطيع المساهمة في تحقيق الرفاهية لجميع البشر .

إن قيمنا الثقافية والإعلامية السائدة، وتربيتنا في بيوتنا ومدارسنا، وعلاقات الشيوخ بطلبتهم والأساتذة بتلاميذهم، تتواصى في الغالب على ثقافة الصمت، وتعمل بخلاف المبدأ العُمَري الحكيم: " قل يا ابن أخي، ولا تَحقِرَنَّ نفسَك "، فالكبير يُسكِت الصغير، والزوج يُسكِت الزوجة، والصبيُّ يُسكِت البنت، والمعلم يُسكِت التلميذ، والمدير يُسكِت المدرس، وهلُمَّ جرًّا .

وما زالت قيمنا السيئة تغري بتأجيل المشكلات بدلًا من مواجهتها، والأخذ بالحلول التلفيقية، والاشتغال بالأعراض والنتائج بدل الأسباب والمقدمات .. وما زلنا نظنُّ أن غياب رأي معارض أو ناقد أو مُستدرِك هو علامة صحة وعافية وكمال، مع أن تلك الحالة أشبه بالجسم الذي يفتك به المرض ويتغلغل في أطرافه دون أن يصدر عنه إنذارٌ من ألمٍ أو حُمَّى .

وهذه العقلية جعلت منا " أمةً نموذجية " في إخفاء الحقائق (كما يقول عبد الحميد عشاق)، والخوف من الوضوح، والهروب من مواجهة المشكلات، والتنصل من المسؤولية، والبروز بالمظهر اللبق .. فصار للمرء في مجتمعاتنا وجهان، الظاهر منهما خيرٌ من المستور، مع أن الأصل أن يكون باطن المرء خيرٌ من ظاهره .

إن التربية هي الأداة التي تُوسِّع مساحة الشعور بالمسؤولية، ومن خلال هذا التوسع تتكون النماذج الريادية التي تأخذ بيد المجتمع في حركةٍ تصاعدية في معارج التقدم والتحضر، ومن غير التربية تظلُّ المعاناة من الهُوَّة الفاصلة بين ما نعلم وما نفعل .

علينا أن نتخذ من مساحة الشعور بالمسؤولية معيارًا للتحضر الحقيقي، كما نتخذ من اتساع الشعور باللامبالاة ومخالفة القوانين والنظم السارية مؤشرًا على التخلف، فالمسؤولية قدرة على الاستجابة الإيجابية للتحديات والمطالب التي تنشأ عن الضمير الاجتماعي، أما الشعور بالذنب أو الألم فهو استجابة سلبية غير عملية لمطالب اجتماعية؛ ولذلك لا تكون الأفعال الصادرة عن الشعور بالذنب فعالةً ولا نافعة، كما أن صدق الإنسان وإقراره بما فعل - مهما كان سيئًا - دليلٌ على الشعور بالمسؤولية، وأن التوبة والاعتذار عن التقصير لا يكونان إلا عند الشعور بالمسؤولية .

وحين نتيح للناس أكبر قدر من الحرية فإننا نساعدهم على بناء وازعٍ داخلي يدفعهم إلى تحمل المسؤولية عن أعمالهم، فالشعور بالمسؤولية ينبثق من أعماق الشعور بالحرية والكرامة، وكلما

زادت الرقابة الاجتماعية على الأفراد ضعف لديهم الوازع الداخلي؛ وذلك لأن الشعور بالمسؤولية يتطلب قدرًا من التفويض وقدرًا من الحرية، وعلينا أن نرسخ الرقابة الذاتية التي تجعل الشخص المسؤول يرقى بالمسؤولية من التشريف إلى التكليف، حيث إن الشعور بالمسؤولية لا ينمو في أجواء القهر والكبت والمتابعة الشديدة، وإنما ينمو في أجواء الحرية، حيث يشعر الإنسان أنه مُخيَّرٌ بين أن يفعل كذا، أو أن يفعل كذا، وحين يختار أحدهما يكون قد مارس حريته، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره على قاعدة " مارس حريتك، وادفع الثمن " .

إن الواجب (التزام) تشعر به ذاتٌ (حُرَّة)، وهذا يعني أن الشعور بالحرية يكاد يكون شرطًا للشعور بالواجب وتحمل المسؤولية، والعقل كلما ازداد نضجًا جعل صاحبه يشعر بالمسؤولية عن تصرفاته وأعماله ومواقفه كما يؤكد على ذلك الدكتور: عبد الكريم بكار .

ولنتأمل مشهدًا من سيرة (نيلسون مانديلا) نورده على لسانه لدلالة كلماته وعمقها حيث يقول: " في البداية عندما كنتُ طالبًا أردتُ الحرية لنفسي فقط، الحرية العابرة التي تمكنني من السهر خارج المنزل وقراءة ما أحب، والذهاب إلى حيث أريد، بعد ذلك عندما أصبحت شابًّا في (جوهانسبرج) بدأت أسعى إلى حريتي الأساسية المشرقة في إطلاق طاقاتي وكسب رزقي وفي الزواج وتكوين أسرة، حريتي في ألا أكون حبيسَ حياةٍ تُقيِّدها القوانين، بعد ذلك بدأت أدرك ببطء أنني لم أكن وحدي فاقدًا للحرية، بل إن إخواني وأخواتي لم يكونوا أحرارًا، عندها أصبح جوعي إلى تحقيق حريتي جوعًا أعظم إلى تحقيق حرية شعبي، لقد كانت رغبتي تلك في تحقيق الحرية لشعبي؛ ليعيش حياته بكرامةٍ واحترام هي التي نفخت الروح في حياتي وحوَّلتني من شابٍّ خائف إلى شابٍّ شجاع، إنني لست أكثر استقامةً ولا تضحيةً مِنْ أي شخصٍ آخر، لكنني وجدتُ أنني لا أستطيع أن أتمتع بالحرية المحدودة التي مُنِحتَها ما دام شعبي تكبله القيود " .

لقد أدرك (مانديلا) أن الحرية الفردية أداةُ تخدير كبرى؛ لإغفال الحرية الاجتماعية، فالحرية بدون قانون حرية غير مسؤولة، والحرية التي لا يعيش الناس في ظلها في سلامٍ ليست حريةً حقيقية على الإطلاق، بل هي أقرب إلى الفوضى والأنانية، وأن الرجل الضعيف كما يقول (علي عزت بيجوفيتش) يهرب من الحرية والمسؤولية معًا، والسلطة التسلُّطية هي ملجؤه من هذا الحمل الذي بدونه يمكن له العيش براحة وإن كان ذلك تحت سقف العبودية المختارة من قِبَله هو .

إن أكثر الناس شعورًا بالحرية أكثرهم شعورًا بالواجبات، والفرائض الحضارية والمسؤولية تعني وتحمل في طياتها معنى قدرتك على اختيار نوعية الاستجابة الصادرة عنك .

علاقة الإنسان بالزمن .. مقدمة قصيرة

الذي دعاني للكتابة عن موضوع الزمن ما أراه من حالة الحيرة والتخبط الذي يعانيه كثيرٌ ممن ألتقيهم في موضوع تسكين أنفسهم، هل في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل ؟!

كثيرون هم مَنْ يعيشون حاضرهم وربما مستقبلهم بعقلية الماضي، وهناك مَنْ وقفوا وقفة المتحيّر، هل يتقدمون خطوات إلى الأمام (المستقبل)، أم يتراجعون خطواتٍ إلى الوراء (الماضي)، أم يمكثون في الحال التي هم فيها (الحاضر)، إن الزمن سيتجاوزهم لا محالة، ويحول حاضرهم إلى ماضي ومستقبلهم إلى حاضر .

إن أولى خطوات تحقيق الحلم هي الاستيقاظ من النوم، والعلاقة مع الزمن تحتاج إلى رؤيةٍ واعية تستثمر كلَّ أبعاده، فليس هناك إمكانية لعيش زمانٍ بعقلية زمنٍ آخر، فالوقت في الرؤية الإسلامية يمثل نسقًا مفتوحًا، وهو ليس (كمًّا) خالصًا يُباع ويُشترى، يُنفَق أو يُستهلَك كما في الرؤية الغربية، فالوقت في الإسلام مُشبَعٌ بالهدف والمعنى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، والوقت (نوعٌ) أكثر منه (كَمّ)، وهو (جماعي) أكثر منه (فردي) حيث الخطاب القرآني مُوجَّهٌ للجماعة مع كون الحساب فرديًّا .

فالزمن (زمن) بالنسبة لكلِّ إنسان، ولكن بالنسبة للإنسان الفعَّال زمنٌ تتولَّد فيه حقيقة من حقائق الحياة، ولحظات تنبض بالحيوية، والوقت الذي تستثمره في فهم مَنْ تحب يعود عليك بأرباحٍ هائلة في صورة التواصل المفتوح كما يقول (ستيفن كوفي) .

إن الياباني يتصوف ليقهر الزمن في عالم الروح، في الوقت الذي ينطلق فيه الأمريكي كالمجنون ليقهر الزمن في عالم المادة، أما المسلم فهو مَنْ يستثمر جميع أبعاد الزمن فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة، والشعور بالزمن مقامٌ ليس كلُّ الناس يدركه، (فريد الأنصاري)، وفقدان المرء لحاسة الزمن يجعل من السهل عليه أن يفقد عقله كما يقول (مانديلا)، بل ويفقد حضارته أيضًا، فقد جعل المفكر الجزائري (مالك بن نبي) الزمن (الوقت) أحد ثلاثة شروط للنهضة، والشرطان الآخران هما: الإنسان والتراب .

إنها اللفتة اللطيفة التي أدركها (بيجوفيتش) فيما نراه أحيانًا من مرضٍ في الفرد، إنما هو في الحقيقة مرض الزمن أو المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، وقد وصف (غي دوبو) الرجال في مقولته الشهيرة بأنهم " يشبهون أزمانهم أكثر من آبائهم، ورجال هذا العصر ونساؤه يختلفون عن آبائهم وأمهاتهم؛ لأنهم يعيشون حاضرًا يريد أن ينسى الماضي، ويبدو أنه لم يؤمن بالمستقبل ". (باومان في

كتابه الحداثة السائلة)، وهو ما سبقه إليه الإمام علي - رضي الله عنه - بوصيته الخالدة: " لا تربوا أبناءكم كما رباكم أباؤكم، فإنهم خُلِقوا لزمانٍ غير زمانكم " .

إن الكذبَ يجعل المشكلة جزءًامن المستقبل، أما الصدق فيجعلها جزءًا من الماضي، والخلاف - عادةً - يبدأ صغيرًا شاحبًا، فإن طال عليه الزمن كبر واستقوت ملامحه .

إن الناس يتذمرون من واقعهم، فإذا صار تاريخًا (ماضيًا) شعروا بنوعٍ من الحنين إليه، بل نلمس - أحيانًا - ما يدلُ على أن الناس يعتقدون أن الماضي دائمًا هو الأفضل، وما ترديد الناس للبيت الشعري التالي إلا دليلٌ على ذلك:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا فأُخبِرَهُ بما فَعَلَ المشيبُ

وقولهم باستمرار وفي حالةٍ من التحسر والحنين (رعى الله أيام زمان) .

وحين يكون الإنسان في حالةٍ سوية فإنه يأخذ (العبرة) من (الماضي)، و(القوة) من إمكانات (الحاضر)؛ لِيَخْطوَ من خلالها جميعًا نحو عتبة (المستقبل) .

ودائمًا أنصح أصدقائي وأبنائي (والكلام هنا للدكتور : عبد الوهاب المسيري) ألا يحاكموا الماضي، وإنما يستفيدوا منه، وأن يتحركوا في المستقبل، فالمستقبل هو دائمًا مجال الحرية، والماضي هو مجال العبرة، وعلى المرء أن يحاول أن يكتشف ما بداخله فإن كان شرًّا فليحاول فهمه وتقويمه، وإن كان خيرًا فليحاول التعبير عنه .

إن أبعاد الزمن مترابطة مع بعضها، ولا يمكن أن يتم إسقاط أو تجاهل أحد هذه الأبعاد لصالح البعدين الآخرين، فالماضي لا يمكن إسقاطه أو تجاهله لصالح الحاضر، وكذلك لا يمكن إلغاء الحاضر لصالح الماضي أو المستقبل .

وعندما نولِّي وجوهنا كلية نحو الماضي، نكون في نفس الوقت قد تركنا المستقبل خلفنا ووراءنا، وهذا حُمْقٌ وغباء .

وعندما نولِّي وجوهنا كليةً نحو المستقبل، نكون في نفس الوقت قد تركنا الماضي خلفنا ووراءنا، وفي هذا خسارةٌ وبلادة .

وعندما نتعسَّفُ تطبيق الماضي بكل تفاصيله في الحاضر والمستقبل، نكون قد خسرنا الماضي والمستقبل، ومعهما فقدنا الاستفادة من الحاضر .

وعندما نتوجه إلى المستقبل بكل عزمٍ وبصيرة، وننتقي من الماضي ما يفيدنا ويزيدنا بصيرة، نكون قد ربحنا الماضي والمستقبل، ومعهما الحاضر .

هناك أناسٌ مشدودون ومغرمون بالماضي بكل تفاصيله، متناسين أن الماضي غير المستقبل، ولا يمكن أن يُعاش الماضي مرةً أخرى .

وهناك أناسٌ مشدودون إلى المستقبل دون أدنى اعتبار للماضي، أو أي تقدير للحاضر، ونسوا أن المستقبل ابن الحاضر والماضي، ولا يمكن أن يُبنَى مستقبلٌ إلا عليهما .

وهناك مَنْ هم مشدودون للحظة الراهنة، اللحظة التي يعيشون فيها، متناسين جذورهم الممتدة في الماضي وآمالهم وطموحاتهم المتطلعة إلى المستقبل .

والذكي من يكون مشدودًا ومتطلعًا إلى المستقبل ومستفيدًا من الماضي والحاضر .

أحْسِنْ التعامل مع معادلة الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل) حتى لا تعيش في غير زمانك، أو تطبق على زمانك زمان غيرك .

واستمِعْ إلى نصيحة الفيلسوف (محمد إقبال) حين يقول لك: " مِنَ الماضي يُولَد حاضرك، ومِنَ حالك (حاضرك) ينبثق مستقبلك، فلا تقطع خيط الماضي عن الحاضر والمستقبل، إن أردتَّ الحياة الأبدية " .

وتمسك بهذه القاعدة وعُضَّ عليها بالنواجذ، فهذه القاعدة تقول لك: إن فيزياء التقدم عبارة عن حديث الحاضر مع الماضي عن المستقبل .

الماضي .. رصيدٌ للاستثمار أو للدمار

إن العودة إلى الإسلام لا تعني عيشًا في الماضي التليد - وإنه لَعَمْري لَماضٍ تليد - ولا يعني كذلك استغناءً عن صُنْع مستقبلٍ مجيد، كما يشير إلى ذلك الدكتور (منير شفيق)، بل بالعكس، إنه الوقوف على الأرض التي تسمح برؤية الأشياء كما هي، وبرؤية الحق حقًّا، والباطل باطلًا، إن فهم الماضي شرطٌ " لإدراك " الحاضر، و" توقع " المستقبل .

إن الاغتراف من الماضي هو الذي يجعل جماعةً بشريةً تمتلكُ القدرة على مواجهة حاضرها، وعلى التحضير لمستقبلها، فالبحث عن مستقبلٍ أفضل يجبُ أن يكون شيئًا مُكمِّلًا، لا متعارضًا، مع الاغتراف من الماضي، وعلى كل كائنٍ إنساني، وكل جماعةٍ أن تجعل حياتها ترتوي من هذا التنقل المستديم بين ماضيها التي تُمنَح منه هويتها، عبر تشبثها بأصولها، وبين حاضرها الذي تؤكد فيه على حاجياتها، وبين مستقبلٍ تسقط عليه تطلعاتها ومجهوداتها .

إن (اللا عقل) هو أن يتقدم الإنسان المسلم إلى الأمام من غير قيم، و(اللا قيم) هو أن يعيش في الماضي من غير عقل، مما يتوجب توظيف العقل والقيم في الحاضر لتحرير الماضي من ذلك الشيء الذي مضى دوره المعرفي وانقضى، وتعزيز المستقبل بشيءٍ يُحِيلُه إلى ارتقابٍ مُحتمَل وفِعْلٍ مُشتمَل، ولا يُعتبر أمرًا مسلمًا به أن نجاح الماضي سيستمر في المستقبل، بل في حقيقة الأمر قد تكون كثيرًا من نجاحات الماضي هي أكبر عوائق المستقبل، إذا لم تُؤخَذ بنوعٍ من الوعي والفهم، فالماضي كما يمكن أن يكون مصدرًا لتجديد وعينا، فإن بإمكانه أن يكون مصدرًا لبلبلة الوعي وانقسامه .

والهروب إلى الماضي للعيش في عالمٍ موهومٍ مُتخيَّل لا يُجدِي نفعًا، وإنما علينا أن نأخذ من الماضي رصيد الثقة بالقدرة على التغيير المتلائم مع حاجات العصر .

وعندما يغيب الوعي بأبعاد الزمن يصبح الماضي عديم الجدوى، ما لم يمدنا بجانبٍ من المعرفة له قيمة عملية، فمهمة الماضي أن يبين لنا الوسيلة التي تمكننا من أن نجعل من الحاضر مستقبلًا أفضل، وذلك بفهم الطريقة التي أصبح بها الماضي حاضرًا .. ويجب أن ننظر إلى الماضي كأنه كان ذاتَ يومٍ مستقبلًا، وأن نفكر فيما حدث من تغيُّرٍ كأنه كان يتحرك أمام نظرنا لا كشيءٍ ذهب وانقضى .. ونحن إذ نلتفت إلى الوراء فإنما نفعل ذلك كي نتجه بأبصارنا إلى الأمام، (عمار علي حسن) .

ولن يكون لنا إحساسٌ حيٌّ بالوجود حسب توصيف الدكتور (زكي نجيب محمود)، وقدرةٌ على المشاركة الإيجابية لحضارة عصرنا، إلا إذا استطاع " حاضرنا " أن يبتلع " ماضينا " ابتلاعًا ينقل ذلك الماضي من حالة كونه تحفةً نتفرج عليها، وعباراتٍ نرددها، إلى كونه غذاءً كالدماء في شرايينها،

أي ينتقل الماضي من خارجنا إلى داخلنا ليصبح فينا ضميرًا حاكمًا ومُوجِّهًا لسلوكنا، لا بمحاكاتنا لما قد كان محاكاةً حرفيةً كما يقولون، بل بإبداعنا للتجديد الذي يتناسب مع عصرنا، كما كان الأسلاف يبدعون ما كان متناسبًا مع عصرهم .

ونحن إذ نعتبر الماضي ملكًا للجميع (كما يقول د . محمد الجابري)، نرى أن صراعاته يجب أن تكون وراء الجميع، لا معهم ولا أمامهم، وإذا كانت الأمة مُنشغِلةً بالمستقبل، وهي تعي دروس الماضي وتقف بقوةٍ على أرضية الحاضر، فإنها ستتقدم خطواتٍ واسعة عن مجتمعاتٍ مُنشغِلة بإعادة إنتاج الماضي أو التعامل مع الحاضر وَفْقَ قاعدة (يوم بيوم)، فالأخطاء تنتهي حين نعتبرها تجربةً نبني عليها حركة الحاضر والمستقبل .

إن الاستمداد من الماضي حسب إشارة الدكتور (محمد الشنقيطي)، قد يأتي أحيانًا في صورةٍ " مَرَضيَّة "، في شكل هروبٍ إلى الماضي من أعباء الحاضر، مع ضرب أمثلةٍ للماضي تُحوِّله من تاريخ بشرٍ من لحمٍ ودم، إلى تاريخ ملائكة يستحيل الاقتداء بسيرتهم واللحاق بهم .

وخطر هذا النوع من التناول للماضي أنه يُحوِّلُ ماضي الأمة من تاريخٍ حيٍّ نابض، إلى تاريخٍ جامدٍ مقدس، يثير " الحماس "، لكنه لا يمنح " الخبرة "، ويحرك " الهمة "، لكنه لا يقدم " العِبرة "، ويُظهِر تقصير " الخلف "، لكنه يقنطهم من اللحاق " بالسلف " .

والأمم الراشدة تقسو على ماضيها من أجل إنقاذ مستقبلها، أما الأمم الضعيفة فتحتمي بالماضي تهربًا من مواجهة الحاضر واقتحام المستقبل، إن الماضي - لمن يعي ويفقه - عبرة الحاضر وزاد للمستقبل .

وعلى الواحد منا أن يغترف من الماضي دون أن يُبلِّلَ ثيابه بمائه، حسب تعبير الدكتور: عبد الكريم بكار، أي أن يقترب منه اقترابَ مُنتفِعٍ دون أن يَغْرَقَ في مياهه، إنه يقترب ليبتعد، ويبتعد ليقترب، يأخذ من عبرة الماضي لإصلاح الحاضر، ويحكم بمعطيات الحاضر على أحداث الماضي ووقائعه، وعلى كثيرٍ من موروثاته .

ومنهج الرواد في هذا الأمر يُستشَفُّ منه أن الماضي بالنسبة لهم " قيمة " يُتَوجب أن تُعاش من أجل تقديم الدعم للحاضر والمستقبل .

إننا كلما تقدمنا في السن نصبح أكثر ارتباطًا بالماضي، وتستولي علينا العادات التي اكتسبناها طوال حياتنا، وتتحكم في كل تصرفاتنا، ويصبح أيُّ شيءٍ نجح معنا في الماضي نوعًا من العقيدة بالنسبة إلينا، أو قوقعةً تحمينا من الواقع، فيحلُّ التكرار محل الإبداع .

وكم من المرات يرتدُّ صاحب (الشخصية السالبة) إلى أحضان الماضي للبحث عن أحلام الأمن النفسي، فيتعلق بالعادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية بدلًا عن الإبداعات الأخلاقية الجديدة، ويعارض الجديد من الأفكار والاتجاهات، ويصم أذنيه عن المناقشة، ولا يسمع إلا نفسه .

وهو الحال نفسه في أمر المجتمعات حين تكون في حالة شيخوخة يكثر حديثها عن الماضي، ويكون المستقبل في نظرها عبارة عن همومٍ ليس أكثر .

وأحيانًا نتساءل بمرارة: لماذا يسير الناس ووجوههم متَّجهة إلى الأمام، بينما يسير آخرون ووجوههم دائمة الاتجاه إلى الخلف ؟! بل إن كثيرًا منهم يعيش جسدًا في الحاضر، وعقله يسكن في الماضي !

ومما يُؤسَف له أن حركة الفكر لدينا - في الغالب - هي حركة اجترار للماضي فقط، وليست استنطاقًا للحاضر والمستقبل، فنحن سجناء الماضي بقوةٍ قاهرةٍ عابرةٍ للتاريخ، فتراثنا فقط هو ملجأنا الوحيد ضد الأخطار التي تحدق بنا، وحين تعصفُ بنا العواصف، وتشتدُّ علينا الأعاصير، وبدلًا من أن " نحمي " تراثنا ونستفيد منه صرنا " نحتمي " به لا غير .

إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره، مَنْ كان من الشعوب قد شعر بنفسه، فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومَدَّ يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه، مُعرِضًا عما لا حاجة له به، أو ما لا يناسبُ شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .

يمكن أن يصبح الماضي قيودًا تُكبِّلُ الإنسان فلا يستطيع منها فكاكًا، وبالمقابل يمكن أن يكون " منصة إطلاق " وانطلاق، يستطيع من خلالها الإنسان أن يتجاوز الماضي مستفيدًا منه، مع كونه متحررًا من قيوده، وشاهدًا على حاضره، ومتطلعًا إلى مستقبله .

الحاضر .. ثمار الماضي وبذور المستقبل

تنبئنا حوادث الأيام أن الحاضر غرس الماضي، و أن المستقبل جَنَى الحاضر، وأن كلَّ حدثٍ هو نتيجة لما قبله، ومقدمة لما بعده، وأن التاريخ البشري ما هو إلا سلسلة من المقدمات والنتائج، وكلما تقادم العهد بين الماضي والحاضر كان التأثير أوهى وأضعف، وكلما تقاربا كان التأثير أعمق وأوضح، وأن مَنْ يغيرون الواقع هم مَنْ يقرأون المشهد قراءةً دقيقة، ويستشرفون المستقبل وَفْقًا للسُّنَن الكونية وحقائق التاريخ، ويزرعون الأمل حين يزرع غيرهم اليأس، ويعملون حين يقعد الآخرون، ويواجهون حين يعتبر غيرهم الاستسلام حكمة، إذ من الحماقة تغيير الواقع دون فهمه والإحاطة بمكوناته ومؤثراته .

لقد حذر الدكتور/ حسن الترابي المسلمين من أن " الدين لا يتسوَّف؛ لأنه هو الحياة لله عبر كل الظروف "، فكلُّ توقفٍ تخلفٌ؛ لأن حركة الزمان لا ترحم الواقفين الجامدين، ولا تنتظر المترددين الخائفين، الذين يعيشون عصرًا بوسائل عصورٍ خَلَت، ولا يميزون بين العنصر الأزلي والعنصر التاريخي في الدين .

وهكذا تتأكد لنا تلك الحقيقة التي تقول: أن موروث كل أمة ليس أمرًا شغل فترةً من حياتها مَضَتْ، ولم يعد له وجود، بل هو داخلٌ في عناصر تكوين ذاتها الحضارية، ويصبح من الضروري التبصر بكيفية التعامل مع هذا الموروث بحيث يخضع لعمليات فحصٍ وتقويمٍ ونقدٍ وانتقاء، فلا يتحول إلى قوة جذبٍ إلى الوراء، وإنما يصبح معينًا على تفسير الحاضر ومساهمًا قويًا في الدفع إلى المستقبل، كما يؤكد على ذلك الدكتور سعيد إسماعيل علي، والأمم الواعية تعيش الحاضر دون أن تنكر أو تتنكر لتراثها الماضي .

وهي الرؤية ذاتها التي تطرق إليها الدكتور فؤاد أبو حطب، بعباراتٍ أخرى، حيث نبَّهَ إلى أن الهجرة إلى الماضي، وإلغاء الحاضر، وضعف النظرة إلى المستقبل هي تصرفات انسحابية، كما أن الوقوع في أسر الحاضر مع تجاهل رصيد خبرة التاريخ، والقعود عن التأهب للمستقبل هي أفعال انتهازية، أما القفز إلى المستقبل من دون وعيٍ دقيق بالواقع المعيش، وفهمٍ عميقٍ لدروس الماضي فهي سلوكيات انتحارية، وهي نظرات ثاقبة لمن يعي ويحسن التعامل مع أبعاد الزمن .

وهذه هي فائدة التاريخ لكلِّ أمةٍ من الأمم، فالماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل، فلا ينبغي إهماله أو إلغاؤه، كما لا ينبغي استنساخه بدون إبراز دروسِه المفيدة وعِبَره النافعة، فالأمة التي لا تاريخ لها كالشجرة التي لا جذور لها، تموت غدًا إن لم تكن قد ماتت اليوم أو بالأمس القريب أو البعيد كما يقول المؤرخ محمود شيت خطاب .

والذين يعيشون خارج العصر، وَفْقَ عبارة الدكتور (عبد الكريم بكار)، موزعون بين الماضي والحاضر، فهم على مستوى التصورات والمفاهيم أسرى لمقولاتٍ ماضية يعجزون غالبًا عن التأكد من صحتها، وهم على مستوى الحاضر أسرى الهموم والمشاكل، أما المستقبل فلا يستحوذ إلا على القليل من اهتماماتهم وخططهم واستعداداتهم، وهكذا صار الحاضر الذي كان كلَّ شيء لا شيء، فهو موزع بين الماضي والمستقبل .

والاهتمام بالموروث الحضاري على وجه العموم فريضة أساسية، وخاصة في بدايات النهوض الحضاري، حيث يتجه الجهد الفكري إلى استيعاب خبرة الماضي منطلقًا بذلك إلى هدفين: أولهما: أن يكتسب ثقةً في الذات تؤهله لأن ينهض ويتابع السير، والآخر: أن يكتسب خبرةً من هذا الماضي يمكن أن يبني عليها في الحاضر والمستقبل .

وربط الحاضر بالماضي، والماضي بالحاضر، يساعد الانسان على عدم الإحساس بالغربة عن الماضي أو عن الحاضر، ومِنْ ثَمَّ يكون انفعاله بالمستقبل انفعالًا صحيًّا، وفي الاتجاه الصحيح، وبالتالي يأتي الجديد متسقًا مع الواقع .

إن الحاضر إذ يستدعى الماضي لا يمنع تحقيقه في الحاضر داخل حركةٍ من التفاعل الدائري المستمر، كما أن معرفة الماضي هي وحدها من تُطوّعِ لنا تصور المستقبل، وتُوجِّه جهودنا إلى الغاية الجديرة بتراثنا العظيم، فالماضي والحاضر والمستقبل (وحدة) لا سبيل إلى انفصامها، ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل .

وفي واقع الأمر فإن لحظةَ تدبُّرٍ واحدة لكفيلة بأن يدرك المرء أن الحاضر في حالة صيرورة إلى أن يصبح زمنًا غابرًا، وأن المستقبل يدركنا في كل لحظة، وعندما نمتنع عن اتخاذ قرارات ومواقف فيما يتعلق بالمستقبل، فلا نملك أن يستديم الحاضر، ولا أن نمنع المستقبل من أن يكون، وأن يلحق بنا ويسيطر علينا، وكلُّ ما في الأمر أننا لا نتعلم أن نشارك فيما سوف يقع، فتكون النتيجة أننا نخسر كلَّ شيءٍ فيما هو آتٍ وكائن، ويُؤخَذ منا عُنْوةً ما كان يمكن أن نأخذه اختيارًا .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن المستقبل أو نتطلع إليه إذا لم نبدأ من الحاضر، كما يقول المفكر فهمي هويدي، فالغد هو ابنٌ شرعيٌّ لليوم، وما نزرعه الآن هو في الأساس ما نجني ثماره غدًا، فقرارات (الماضي) بما لها وما عليها قد رسمت تجليات (الحاضر) بما له وما عليه، وقرارات (الحاضر) بما لها وما عليها سترسم آفاق (المستقبل) بما له وما عليه، ولكي نستفيد من الحاضر أكثر وأكثر، فإن علينا أن نضغط عليه ونوظفه بتطلعات وخطط المستقبل، حتى لا يتفلت من بين أيدينا، وينتقل إلى خانة الماضي دون أي فائدةٍ تُذكَر .

المستقبل .. رؤية ثاقبة يتلوها تخطيطٌ وعمل

من أهم مبادئ الدراسات المستقبلية أن المجال الذي يمكن للإنسان أن يؤثر فيه هو المستقبل بالأساس، ولهذا يطرح الأستاذ المهدي المنجرة مفهوم (استعمار المستقبل) ويقول: إن العالم الإسلامي إذا لم يُخطِّط لمستقبله، فإنه يوشك أن يُستعمَر بدوره، كما استُعمِر ماضيه وحاضره، فالمستقبل ليس مجالًا للاستكشاف فقط، بل هو أيضًا مجالٌ للعمل والتأثير، كما لم تعد الدراسات المستقبلية حلمًا جميلًا، ولا مجرد خيال يشتطُّ به العقل هاربًا من ثقل الواقع المعيش، ولا - كذلك - ترفًا فكريًّا يمارسه بعض العلماء ممن يحبُّ كلَّ جديدٍ وغريب، بل صار الاهتمام بالمستقبل ضرورةً يأمر بها الدين وتفرضها التغيرات المتسارعة التي يعرفها عالمنا المعاصر .

واستشراف المستقبل كما يشير إلى ذلك الدكتور (محمد بريش) ليس تنبُّؤًا بالغيب، وليس كما يقول العوام ضَرْبًا على الكفِّ أو قراءةً في الفنجان، بل هو علمٌ من العلوم له مقوماته وله فنونه، فهو جهدٌ علميٌّ منظم، يهدف إلى التنبؤ بما سيحدث في المستقبل القريب أو البعيد، بأساليب وطرق مشروعة، ومن المؤسف أنك عندما تُمعِن النظر في تصور المستقبل فإن ذلك يعني عند العرب أنك تمارس الحلم، بينما يعني عند العالم المتطور أنك تمارس التفكير بعمق، إننا يجب أن نعي كعربٍ وكمسلمين أن الزمن ليس مفتوحًا لنا لنحلَّ مشكلاتنا في الوقت الذي يروق لنا .

إن تجريم أو تأثيم النظر صوب المستقبل والإعداد له، في ضوء استلهام الماضي وقراءة الحاضر (بحجة التوكل أو الإيمان بالقضاء والقدر)، هو نوعٌ من التفكير المِعوج والتدين المغشوش، الذي يتناقض مع أصل الخلق وهدفه، ويعتبر نقيصةً للإنسان الذي يتجه عضويًّا إلى التفكير بمستقبله، حتى لنجد في تكوينه العضوي وجود عينيه في أعلى قامته بحيث يستطيع النظر إلى أبعد ساحة أمامه، فليس الاستشراف إلا الارتفاع إلى أعلى والصعود إلى الشرفة العالية ليتمكن من النظر المديد ومعرفة ما في الأفق البعيد كما يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة، بل إن الوعي بالمستقبل له تأثيره على الدماغ البشري أيضًا، وفي هذا يقول لومباردو: " سواء كان المرء مثاليًّا أو واقعيًّا، متساميًا أو برغماتيًّا، كونيًّا أو متمركزًا ذاتيًّا في الموقف والميل، فإن الوعي بالمستقبل يزود الدماغ الإنساني بالطاقة، ويغنيه ويفيده " .

ومغالبة الأقدار ليست بالخروج والتمرد وإنكار القدر وعدم الإيمان به، بل على العكس من ذلك فهي نوعٌ من أرقى أنواع الإيمان، حيث القدرة القصوى على التسخير بالمغالبة، كما في المقولة العمرية: «نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله»، وكما يقول عبد القادر الجيلاني قولته الذهبية: «ليس المسلم هو الذي يستسلم للقدر، وإنما المسلم الحق هو الذي يغالب القدر بقدرٍ أحب إلى الله»، هذه

المغالبة، وهذا الإدراك المترافق مع الإيمان باطراد السُنَن هو الذي يمنحنا القدرة على استشراف المستقبل، والمداخلة في مقدماته، في الحاضر، والتخطيط لما نريده أن يكون عليه .

إن الدراسات المستقبلية تفتح لنا طريقًا للإيمان بأن المستقبل ليس قدرًا محتومًا، فهناك دومًا بدائل بعضها أفضل من الأخرى، ويمكننا أن نختار منها وَفْقَ ما نرغب وما نقدر، بشرط أن نكون مستعدين دومًا لدفع الثمن الذي يستحقه خيارنا المفضل، حسب توصيف خير الدين حسيب في كتابه (العرب إلى أين ؟)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٠) يوضح أن الهدف من السير والنظر واضح، يتمثل في استصحاب التجارب والمعارف والكشوف والمعلومات لتحقيق الاعتبار، والاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الماضي والحاضر إلى استشراف المستقبل، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات .

إن العالم المتقدم اليوم بمؤسساته وسياساته يستشرف المستقبل، ويدرس المقدمات، ويوازن بين الاحتمالات جميعها، ويضع لكلِّ احتمالٍ عُدَّتَه وامتلاك وسائل التعامل مع الأزمات وإدارتها، ويُحكَم من قبل الخبراء والمتخصصين، فلا مكان للأغبياء في عصر الأذكياء، فمتى نفكر بكيفية أن نحسن الحياة في سبيل الله، ونوفر كلَّ استحقاقات ذلك، كما نفكر بالموت في سبيل الله ؟

إن فهم سنة الله الجارية تجسُرُ وتربط العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وحين نكتشف سنة الله في مجالٍ ما فإن ذلك يعني سهولة فهم الماضي والحاضر، كما يعني استشرافًا حسنًا للمستقبل، والمراد بالبُعْدِ السُّنَني هو ذلك البُعْد الذي يراعي عادات الله المألوفة وقوانينه الثابتة التي تتحكم في حركة الحياة والأحياء، والاعتبار بها، والتجانس معها، إذ إن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر، ويُتوقَّع حدوثه في المستقبل، إذا تشابهت الأحوال، ولذا " يجب أن ندرس أحداث الماضي حتى ندرك أحوال حاضرنا، ثم نحاول أن نتلافى تكرار سيئات الماضي في المستقبل "، كما يقول د . عمر فروخ .

وقراءة مستقبل الأمة - كما يؤكد د . محمد الخطيب - في ضوء المدخل السُّنَني، يمكن إدراكه من خلال الاعتبار الذي يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الماضي والحاضر إلى استشراف المستقبل، ثم التمكن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه، في إطار تتواصل فيه حلقات الزمان، وتتفاعل ضمن مناهج التفكير والاعتبار .

ويورد الدكتور (محمد بريش) تعريفًا لـ " استشراف المستقبل " يقول فيه: " استشراف المستقبل هو النظر إلى الزمن القادم ببصرٍ حديد، ونظرٍ ثاقب؛ بُغْيةَ تصور الواقع المقبل، انطلاقًا من شرفة الواقع الحاضر، واستيعابًا لعِبَرِ الواقع الراحل " .

والمتمعن في هذا التعريف يلاحظ أنه استعمل كلمة " الواقع " في مراحل الزمن الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل، حتى تعكس الغاية المرجوة من دراسة المستقبل والمتمثلة في (تغيير مجرى نهر الواقع الدافق نحو الأفضل وتوجيه وجهته ومصبه نحو الأمثل)، ففي كلٍّ من المراحل الثلاث، لا يُهْتَم بالواقع لذاته، وإنما لدفع عجلته نحو السبيل الأقوم والصراط المستقيم .

(فالماضي) يُدرَس ويُستوعَب ليس حبًّا في الاحتماء به أو اللجوء إليه، وإنما لتوظيفه في عمليات التغيير للحاضر والتوجيه له، (والحاضر) لا يُهتَمُّ به لتسجيل الشكل وتأييد الصورة وإنما يُستكشَف لإعمال الوعي فيه نحو إزالة المعوقات ومواجهة التحديات، (والمستقبل) يُهتَمُّ به ليس للحلم والتمني، وإنما لنمتطي جواد كسب المعارف وتحسين الواقع بتحليل ودراسة صور متأزمة له محتملة الوقوع .

إن الحالة الطفولية في التعامل مع أبعاد الزمن تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ حالة الطفل الصغير الذي لا يحس بمرور الوقت، ولا يعي ماضيًا ولا يكترث بمستقبل، رغم مشاركته طوعًا أو كرهًا لبني جنسه في رحلتهم الزمنية عبر دروب المستقبل، لكن بمجرد أن يبدأ هذا الطفل وهو في حركته الدائمة تلك يعي مجراه الحياتي، منتبهًا إلى كونه ترك وراء ظهره ماضيًا يحتاج إلى استيعاب، وفتح صدره لمستقبلٍ يحتاج إلى تطلُّعٍ واستشراف، وإن عينيه الآن ترى واقعًا يحتاج إلى استقراءٍ واكتشاف، فإن مخيلته تبدأ في التطلع لرسم أشكال لذلك الماضي، وذلك الحاضر، وذلك المستقبل، ينبغي أن تُحلَّل وتُصقَل وتُوظَّف لتحسين الحاضر، سواء الحاضر الآن أو الحاضر غدًا، وتلك ملكة فطرية أودعها الخالق المنان في هذا الإنسان، فمتى يتخلى البعض منا عن حالة الطفولة التي طال أمدها، لينتقل إلى حالة الرشد التي طال انتظارها ؟!

إن مقصود النهي عن (لو) كما في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : " فإن لو تفتح عمل الشيطان "، هو تحرير الإنسان من الماضي وقيوده، وتوجيه طاقته ونظره إلى المستقبل .. فالإسلام لا يريد أن يكون المرء أسيرًا لزمنٍ انقضى، بل يريده مقبلًا على المستقبل ووعوده .

ويُصنِّف علم النفس الحديث نوعًا من الناس يمكن تسميتهم بـ « أسرى الماضي »، فحياتهم كلها عبارة عن (لو)، ومحكومة بها، فكأن الماضي استغرقهم حتى فقدوا الصلة بالحاضر والإحساس بالمستقبل، بل قد يقع هذا لمجتمعاتٍ أو مجموعاتٍ بشرية بأكملها، وذلك حين تعجز عن التعامل الإيجابي مع الماضي ووقائعه (كما يشير إلى ذلك إلياس بلكا) .

إن تراثنا مهما كان عظيمًا، وإنجازنا التاريخي مهما كان متألقاً، إذا لم نتأهل به لكيفية التعامل مع الحاضر، وإبصار المستقبل، فسوف يتحول من شاحذٍ للذهن، أو مُخصِّبٍ للذهن ودافعٍ لارتياد آفاق المستقبل، بأدواته المناسبة، إلى مُعوِّق، مهما حاولنا الإشادة به واستخدامه للهروب من الحاضر البائس ومعالجة مركب النقص .

لقد درس الإنسان الماضي ليلقي الضوء على الحاضر، بل واستشراف المستقبل، حتى قال أحدهم رابطًا علاقة الماضي بالمستقبل: إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي، ومثله من ربط الحاضر بالمستقبل حين قال: إذا كنت لا تعرف أين تقف الآن فلن تعرف إلى أين أنت ذاهب، ولكن (ألفين توفلر) في كتابه (صدمة المستقبل) قلب المعادلة ومرآة الزمن، مقتنعًا بأن صورةً واضحةً للمستقبل يمكن أيضًا أن تمدَّ حاضرنا بالعديد من البصائر التي لا غنى عنها؛ لأننا سنواجه مصاعب متزايدة في فهم مشكلاتنا الشخصية والعامة إذا لم نستعن بالمستقبل أداةً للفهم والإدراك واستشراف المستقبل كما يقول الدكتور (أحمد الحاج) هو بحد ذاته عملية وقائية تتوقع المشكلات وأخطارها في ضوء معطيات الحاضر، وتمكن من البحث عن سبل مواجهتها قبل أن تتعقد وتفرض واقعًا مُرًّا بكل مآسيه .

إن العقل المستقبلي كما يقول الدكتور (عبد الكريم بكار) يكافح الانقطاع والانفصام بين الأزمنة، ويسعى إلى تجسير العلاقة بين الماضي والمستقبل مرورًا بالحاضر، وذلك بُغْيةَ الوصول إلى توازن الشخصية، وتحقيق أكبر قدرٍ ممكن من الانتماء، وكثيرًا ما يقع كثيرٌ من الناس أسرى حركةٍ ترددية بين الماضي بمُثُله وقِيَمِه وخبراته، والمستقبل بآماله وخططه ومشاريعه متجاوزين الواقع وظروفه وضروراته، أي أنهم يعيشون لحظتين لا يملكون واحدةً منهما، وفي هذا إخلالٌ بمعادلة الزمن .

إن المفكر يحاول أن يستقرئ الماضي، ويرصد الحاضر، ويرسم صورةً للمستقبل، ولديه ميلٌ للرؤية الشاملة، فهو يحبُّ لعقله أن يجول بين الماضي والحاضر والمستقبل، فيحب رؤية الجذور والأسباب، ويحبُّ فهم الواقع وتداعياته، كما يحب أن يعرف ما تؤول إليه الأمور، والمهم ليس معرفتنا بالمستقبل كزمنٍ مجرد، ولكن المهم هو الوعي بالمستقبل كواقعٍ قادم؛ بُغْيةَ استكشاف كنهه، والتحكم في شكله (د . محمد بريش)، كما أن أفضل طريقةٍ للتنبؤ بالمستقبل هو المشاركة في صناعته والمعتصم العباسي فاتح عمورية كان من الرجال الذين يعرفون أن المستقبل يُصنَع ولا يُنتظَر .

إن العناية بالمستقبل إنما تكون بالإعداد والعدة له، وإن الإنسان المسلم مُؤتمَنٌ على ذلك، فالحاضر لا يخرج عن كونه مستقبلًا للماضي وماضيًا للمستقبل، وإن تجاوز إمكانية قراءة الحاضر إلى محاولة صناعة المستقبل، وتحضير الناس له بزرع اهتماماتهم وتشكيل أهدافهم، لَهِيَ الرؤية التي تستشرف وتقوم عليها الدورات الحضارية للنهوض .

ثقافة المشروع .. بناءٌ للذات التي تبني

أحببتُ أن أضع بين يدَيْ هذا المقال نموذجين، أحدهما من العالم الإسلامي (ماليزيا)، والنموذج الآخر من خارج العالم الإسلامي (اليابان)، أضعهما كمقدمةٍ للمقال، وربما أن بعض القراء قد اطَّلَعَ عليها أو على أحدهما، وهدفي ليس نشر النموذجين فقط، بل توظيفهما في إطار مقالي هذا؛ ليتسنى للقارئ التأسي والاقتداء بهذين النموذجين في تكوين مشروعه، ويفهم بالمقابل الأفكار التي سيتناولها المقال بعد طرح النموذجين، مع تعليقٍ بسيط نهاية كل نموذج، مع العلم أن هناك نماذجَ كثيرةً يمكن إيرادها، لكنني سأكتفي بهذين النموذجين؛ لدلالتهما في بناء الإنسان لمشروعه، سواء كان في وطنه أو خارج وطنه .

النموذج الأول: الطالب الماليزي ومشروع إدخال السعادة على إنسان:

اشترط أستاذ مادة علم الاجتماع في جامعة ماليزية على طلابه إسعاد إنسان واحد طوال الأربعة أشهر، مدة الفصل الدراسي، للحصول على الدرجة الكاملة في مادته، وفرض الأستاذ الماليزي على طلبته الثلاثين أن يكون هذا الإنسان خارج محيط أسرته، وأن يقدم عرضًا مرئيًّا عما قام به في نهاية الفصل أمام زملائه .

لم يكتف الأستاذ بهذه المبادرة، بل اتفق مع شركة ماليزية خاصة لرعايتها عبر تكريم أفضل عشر مبادرات، وفي نهاية الفصل الدراسي نجح الطلاب الثلاثون بالحصول على الدرجة الكاملة، لكن اختار زملاؤهم بالتصويت أفضل عشر مبادرات بعد أن قدم الجميع عروضهم على مسرح الجامعة، وحضرها آباء وأمهات الطلبة الموجودين في كوالالمبور، وقد نشرت هذه المبادرات الإنسانية أجواءَ مفعمةً بالمفاجآت والسعادة في ماليزيا، فالجميع كان يحاول أن يقدم عملًا إنسانيًّا مختلفًا يرسم فيه السعادة على حياة غيره .

لقد قام طالبٌ ماليزي، وهو أحد الفائزين العشرة، بوضع هدية صغيرة يوميًّا أمام باب شقة زميله في سكن الجامعة، وهو هندي مسلم، ابتعثه والده لدراسة الطب في ماليزيا، وقد اختار الطالب الماليزي هذا الطالب تحديدًا؛ لأنه شعر بأنه لا يمتلك أصدقاء، ولم تظهر على وجهه ابتسامة طوال مجاورته له لنحو عامٍ كامل، كان الطالب الهندي لا يتحدث مع أحد، ولا أحد يتحدث معه، يبدو حزينًا وبائسًا مما جعل زميله الطالب الماليزي يرى أنه الشخص المناسب للعمل على إسعاده .

أول هدية كانت رسالةً صغيرةً وضعها تحت باب شقته كتبها على جهاز الكمبيوتر في الجامعة دون توقيع: " كنتُ أتطلع صغيرًا إلى أن أصبح طبيبًا مثلك، لكني ضعيفٌ في مواد العلوم، إن الله رزقك ذكاءً ستسهم عبره بإسعاد البشرية "، وفي اليوم التالي اشترى الطالب الماليزي قبعةً تقليديةً ماليزية

ووضعها خلف الباب ومعها رسالة: " أتمنى أن تنال هذه القبعة قبولك "، وفي المساء شاهد الطالب الماليزي زميله الهندي يرتدي القبعة، وتعلو وجهه ابتسامة مشرقة لم يتصفحها في وجهه من قبل، ليس ذلك فحسب، بل شاهد في حسابه على الفيس بوك صورةً ضوئية للرسالة الأولى التي كتبها له، وأخرى للقبعة، التي وضعها أمام باب شقته، وأجمل ما رأى هو تعليق والد طالب الطب الهندي في الفيس بوك على صورة رسالته، والذي قال له فيها: " حتى زملاؤك في الجامعة يرونك طبيبًا حاذقًا، لا تخذلهم واستمر "، دفع هذا التعليق الطالب الماليزي على الاستمرار في الكتابة وتقديم الهدايا العينية الصغيرة إلى زميله يوميًّا دون أن يكشف عن هويته !! كانت ابتسامة الطالب الهندي تكبر كلَّ يوم، وصفحته في الفيس بوك وتويتر تزدحم بالأصدقاء والأسئلة: " ما الذي ستحصل عليه اليوم ؟ " " لا تتأخر.. نريد أن نعرف ما هي الهدية الجديدة ؟ " .

تغيرت حياة الطالب الهندي تمامًا، تحول من انطوائي وحزين إلى مبتسم واجتماعي بفضل زميله الماليزي !! بعد شهرين من الهدايا والرسائل أصبح الطالب الهندي حديث الجامعة، التي طلبت منه أن يروي تجربته مع هذه الهدايا في لقاءٍ اجتماعي مع الطلبة، تحدث الطالب الهندي أمام زملائه عن هذه الهدية وكانت المفاجأة عندما أخبر الحضور بأن الرسالة الأولى التي تلقاها جعلته يعدل عن قراره في الانصراف عن دراسة الطب، ويتجاوز الصعوبات والتحديات الأكاديمية والثقافية التي كان يتعرض لها .

لعب الطالب الماليزي (محمد شريف) دورًا محوريًّا في حياة هذا الطالب بفضل عملٍ صغيرٍ قام به، سيصبح الطالب الهندي طبيبًا يومًا ما، وسينقذ حياة المئات وربما الآلاف من البشر، والفضل بعد الله لمن ربَّت على كتفه برسالةٍ حانية .

اجتاز الطالب الماليزي مادة علم الاجتماع، ولكن ما زال مرتبطًا بإدخال السعادة على قلب شخص كلِّ فصلٍ دراسي، بعد أن لمس الأثر الذي تركه، اعتاد قبل أن يخلد إلى الفراش أن يكتب رسالةً أو يغلف هدية، اتفق محمد مع شركة أجهزة إلكترونية لتحول (مشروعه) اليومي إلى عمل مؤسسي يسهم في استدامة (المشروع) واستقطاب متطوعين يرسمون السعادة في أرجاء ماليزيا .

تعليقي على هذا النموذج:

1- بإمكان المؤسسات التربوية والاجتماعية، وخاصة (الأسرة، والمدرسة، والجامعة، ووسائل الإعلام) أن تلعب دورًا رياديًّا في بلورة (مشاريع صغيرة)، ستحولها الأيام مع الاستمرار والإصرار إلى مشاريع مجتمعية كبيرة ونافعة .

2- الذكاء العلمي والتربوي لدى الرواد التربويين والإعلاميين هو الذي يكتشف المواهب (الكنوز المكنوزة)، ويساعد على تحويلها إلى طاقاتٍ وإبداعات، تصبُّ في نهر المجتمع، فيستفيد من ذلك

صاحب المشروع، وتزداد ثقته بنفسه، ويستفيد المجتمع؛ لأن هناك مشروعَ رائدٍ مستقبلي جديد، ويستفيد ذلك الإنسان المُلهِم لهؤلاء جميعًا؛ لأنهم ثمار لجهوده، ولن يُخيِّبَ الله مسعاه، ذكرًا حسنًا في الدنيا، وأجرًا مضاعفًا في الآخرة .

3- الذي يساعد الناس على الصعود إلى القمة، هو في الحقيقة يصعد معهم، ومن يساعد الآخرين على النجاح، هو بالفعل يدفع عربون نجاحه أثناء الطريق، ومن يساعد الناس ويبصرهم على بناء مشاريعهم الخاصة، سيكون هو بالفعل أبًا روحيًّا لهذه المشاريع، وثمَّةَ حقيقة يجب ألا تغادر مخيلتنا .. مَنْ يبني للآخرين مجدهم، فإنه يبني صرح مجده الخالد في الدنيا قبل الآخرة .

النموذج الثاني: الطالب الياباني الذي نقل سر المحركات الأوروبية إلى اليابان:

رجل قصتنا اسمه (تاكيو أوساهيرا)، وندعه هو يحكي قصته كما رواها وليام هارت، ونقلها عنه الأستاذ حسين مؤنس، في مقالةٍ له نشرتها مجلة (أكتوبر) المصرية، عدد (234)، وتاريخ 14 يونيو 1981م، يقول (أوساهيرا)، وكان في هذا الوقت مبعوثًا من قبل حكومته للدراسة في جامعة هامبورج بألمانيا: لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني، الذي ذهبت لأدرس عليه، في جامعة هامبورج، لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم، كيف أصنع محركًا صغيرًا ؟ كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى (موديل)، هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنعه، وضعت يدك على (سر) هذه الصناعة كلها .

وبدلًا من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك، أيًّا كانت قوته، وكأنني أقف أمام لُغْزٍ لا يُحَل، وفي ذات يوم، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي منحتي المالية الشهرية. وقد وجدت في المعرض محركًا، قوة حصانين، ثمنه يعادل منحتي كلها، فأخرجت المنحة ودفعتها، وحملت المحرك، وكان ثقيلًا جدًّا، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه، كأنني أنظر إلى تاجٍ من الجواهر، وقلت لنفسي: هذا هو سِرُّ قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا، لغيرت اتجاه تاريخ اليابان .

وطاف بذهني خاطرٌ يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطعٍ ذاتِ أشكالٍ وطبائعَ شتى، مغناطيس كحدوة حصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس، وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك، وأعيد تركيبها، بالطريقة نفسها التي ركبوها بها، ثم شغلته فاشتغل، أكون قد خطوت خطوةً نحو سر (موديل) الصناعة الأوروبية .

وبحثتُ في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرتُ على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا، وأتيتُ بصندوق أدوات العمل، ومضيتُ أعمل: رسمت منظر المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمي أجزاءه، ثم جعلتُ أفككه، قطعةً قطعة، وكلما فككتُ قطعةً، رسمتها على الورق بغاية الدقة، وأعطيتها رقمًا، وشيئًا فشيئًا فكَّكْتُه كله، ثم أعدتُّ تركيبه وشغَّلْته فاشتغل، كاد قلبي يطير من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبةً واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل .

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسنًا ما فعلت، الآن لا بُدَّ أن أختبرك، سآتيك بمحركٍ متعطل، وعليك أن تفككه، وتكشف موضع الخطأ، وتصححه، وتجعل هذا المحرك، العاطل يعمل، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام، عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت هناك ثلاثٌ من قطع المحرك باليةً متآكلة، صنعتُ غيرها بيدي، صنعتها بالمطرقة والمبرد .. إننى بوذي على مذهب (رن)، ومذهبي هذا يقدس العمل، فأنت تتعبد إذ تعمل (العمل عبادة)، وما تعمله بعد ذلك من شيءٍ نافع، يقربك من بوذا .

بعد ذلك قال لي رئيس البعثة - وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحيًا - قال: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محركًا، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك، التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألمنيوم، بدلًا من أن أعد رسالة دكتوراه، كما أراد مني أساتذتي الألمان .

تحولتُ إلى عاملٍ ألبسُ بدلةً زرقاء، وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيدٌ عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة (ساموراي العظيمة)، ولكنني كنت أخدم اليابان، وفي سبيل اليابان يهون كلُّ شيء .

قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل، كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة في الورشة والمعمل .

وعلم الميكادو (حاكم اليابان أو رئيسها) بأمري، فأرسل لي من ماله الخاص، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب، اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردتُّ شحنها إلى اليابان، كانت النقود قد فرغت فوضعت منحتي المالية وكلَّ ما ادخرته أجرة شحن الأدوات والآلات، وعندما وصلنا إلى (نجازاكي) قيل لي: إن (الميكادو) يريد أن يراني. قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنعًا كاملًا للمحركات .

استغرق ذلك تسع سنوات، وفي يومٍ من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات صُنِعت في اليابان، قطعةً قطعة، حملناها إلى القصر، ووضعناها في قاعةٍ خاصة، بنوها لنا قريبًا منه،

وأدرناها، ودخل (الميكادو)، وانحنينا نحييه، وابتسم، وقال: هذه أعذبُ موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة .

هكذا ملكنا (الموديل)، وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان، ونقلنا اليابان إلى أن تكون في مستوى الغرب، ثم ذهبنا وصلينا في المعبد، وبعد ذلك نمت عشر ساعات كاملة لأول مرة في حياتي منذ أكثر من خمس عشرة سنة .

تعليقي على هذا النموذج:

1- أعظم ما في هذه القصة هو هذا الانتماء الكامل للوطن، والاستسلام المدهش لحاجته الحقيقية، والعشق الواضح للعمل المنتج، فقد كانت حاجة الوطن إلى (محرك)، أهم وأعظم من شهادة الدكتوراه بالنسبة لهذا الطالب، وكان إصراره على نقل سر المحرك من أوروبا إلى اليابان هو (مشروع) العمر بالنسبة له، والذي يعادل عشرات الشهادات النظرية .

2- لكل شيءٍ ثمن، وقد دفع هذا الطالب الثمن عن طيب خاطر، أكثر من خمسة عشر عامًا متواصلة من العمل الدؤوب، يصل فيها الليل بالنهار، تلك الفترة هي التي أنجزت هذا (المشروع) الذي غيَّر اتجاه اليابان، وجعله يمتلك سِرَّ تقدم الغرب، وقِسْ على مثال هذا الطالب مئات إن لم يكن آلاف الطلاب اليابانيين المبتعثين في مجالات شتى، أنجزوا (مشاريعهم) من أجل نهضة وطنهم .

3- الروح الحقيقية لبداية انطلاق اليابان، لم تجعل أبناءها ينشغلون بالمسميات، أو المناصب، وإنما شغلتهم أهدافٌ سامية للنهوض باليابان، وشغلتهم معرفة أسرار التقنية، ووقفوا من الغرب موقف (التلميذ) الذي أتقن فنَّ التلمذة حتى فاق أستاذه، بينما وقف العالم الإسلامي من الغرب موقف (الزبون)، والذي استمر زبونًا دائمًا لمصانع الشرق والغرب. كما يقول مالك بن نبي .

بعد أن تعرفنا من خلال النموذجين السابقين على أهمية ومكانة المشروع في حياة الفرد خاصة وفي تطور الأمم عامة، يمكننا أن نوسع الرؤية أكثر حول أهمية ومكانة المشروع؛ لندرك من خلال ذلك مدى إسهام المشروعات في النهوض الحضاري بالأفراد والأمم .

وبادئ ذي بَدْء علينا أن ندرك أن لدى الإنسان نزوعًا فطريًّا لحب البقاء والخلود، وتَرْكِ أثرٍ يُخلِّد اسم هذا الإنسان، ووَضْعِ بصماتٍ تُذكِّر به بعد رحيله من هذه الدنيا، وهو مطلب إبراهيم الخليل عليه السلام من ربه بأن يستمر خلود اسمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الشعراء: ٨٤)، وقد كان له ذلك، فهو أبو الأنبياء، وصاحب المشروع العظيم (مشروع التوحيد)، وحبُّ الخلود أيضًا هو الباب الذي دخل منه إبليس عندما أغوى آدم وحواء وأوقعهما في

المعصية، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه: ١٢٠).

وقد أدرك النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - هذه الطبيعة الفطرية في الإنسان، فوجَّهَ المؤمن إلى إمكانية أن يتواصل ذكره، وتستمر بصمته وأثره من خلال إنجاز مشروعاتٍ طويلة الأمد تبقى مستمرةً بعد انتهاء عمر هذا الإنسان، وهي من المشروعات التي لو أدركت الأمة أهميتها لأنجزت الكثير في الجانب الاجتماعي والعلمي والاقتصادي، فقال صلوات ربي وسلامه عليه: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له " (رواه مسلم).

لقد بدأ ظهور المشاريع مع أول هبوطٍ للإنسان على هذه الأرض، فكان مشروع آدم عليه السلام هو (الخلافة في الأرض وإعمارها)، وكان مشروع إبليس هو (الغواية والإفساد في الأرض)، وقد حقق هذان المشروعان كثيرًا من نتائجهما، ثم كان مشروع نوح عليه السلام (الإنقاذي التوحيدي)، الذي بقي يدعو إليه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ورغم هذا لم يؤمن بهذا المشروع ويصدقه إلا القليل، قيل إنهم لا يجاوزون المائة، ولكن الله أغرق الأرض بكاملها من أجل هذا المشروع ليتواصل سير الإنسانية، ثم توالت مشاريع الأنبياء والرسل عليهم السلام تباعًا، إذ كلما ابتعد الناس عن المشروع (التوحيدي الاستخلافي) الرباني، واتبعوا مشروع (الغواية والإفساد) الإبليسي، أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى المشروع الرباني.

فكان مشروع إبراهيم عليه السلام هو مشروع (التوحيد) في مقابل المشروع (الوثني) الصنمي (من الأصنام) لوالده وقومه، وقد انتصر مشروع التوحيد في النهاية، وانهزم مشروع الوثنية.

وجاء مشروع نبي الله يوسف عليه السلام كمشروع (إداري واقتصادي) في الجملة، في مقابل مشروع إخوته (الأناني الإقصائي)، وكان مشروع نبي الله شعيب عليه السلام متمركزًا حول (الإصلاح الاقتصادي)، وجاء مشروع نبي الله لوط عليه السلام كمشروع (أخلاقي)، وجاء مشروع نبي الله موسى وهارون عليهما السلام كمشروع (تحرري) في مقابل المشروع الفرعوني (الاستعبادي التألُّهي) والمشروع الهاماني (التسلطي)، والمشروع القاروني (الاكتنازي والاحتكاري)، وجاء مشروع نبي الله عيسى عليه السلام كمشروع (روحاني) في مقابل المشروع اليهودي (المادي).

وهكذا مع بقية الأنبياء والرسل والعظماء الذين تحدث عنهم القرآن، مثل لقمان في مشروعه (التربوي)، والعبد الصالح (الخضر) في مشروعه (التعليمي)، وذي القرنين في مشروعه (التمكيني) وبلقيس ملكة سبأ في مشروعها (السياسي الشوروي)، وفتية أهل الكهف في مشروعهم (التزكوي)، وأصحاب الأخدود في مشروعهم (الاستشهادي)، ومريم ابنة عمران وآسيا بنت مزاحم في مشروعهما

(الإيماني)، وطالوت في مشروعه (الجهادي)، ومؤمن آل فرعون في مشروعه (الدعوي) والقائمة تطول، وعلى هذا فقِسْ .

ويأتي على رأس هذه المشروعات، مشروع سيد الكائنات محمد صلى الله عليه وسلم، مشروع (دار حراء ودار الأرقم بن أبي الأرقم) في مقابل مشروع (دار الندوة)، مشروع (تجديد التوحيد والربانية)، في مقابل مشروع (هبل واللات والعزى)، مشروع (خاتم المرسلين) في مقابل مشروع (أبو جهل وأبو لهب)، هذا المشروع الذي من أبرز سماته أنه جاء رحمةً للعالمين، وجاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ثم تفرعت عن هذا المشروع الحضاري العظيم مشاريع الصحابة والتابعين وتابعيهم والعظماء والعلماء والفقهاء والقادة، حتى وصل الأمر إلينا في هذا الزمان، وما بين أول المشروع الذي على رأسه المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه وزماننا هذا ملايين إن لم تكن عشرات الملايين من المشروعات التي تستدعي الاقتداء والتأسي .

كثيرون قد تصنعهم المواقع، وبزوالهم منها قد تذهب ريحهم، ويشعرون بالنكسة والخيبة والإحباط المعلن أو غير المعلن، وقد يصبحون رهينة الأفواه، وحديث الألسن التي تلوكهم بكل ما يكرهون، وتروي قصص البلادة والتخلف في تعاملهم مع مواقعهم تلك .

وبالمقابل فكثيرون قد يصنعون مواقعهم الحقيقة، وبزوالهم من تلك المواقع يبقى حضورهم وذكرهم الحسن، وبمغادرتهم مواقعهم لا تستضيفهم الغربة والغياب في الغالب .. إن هناك فارقًا كبيرًا بين مَنْ تصنعهم المواقع ومَنْ يصنعون مواقعهم، وليس ثمَّةَ سيان بين مَنْ يفرضه (مشروعه) المتميز ومَنْ يفرضه موقعه الوظيفي العابر .

إن تخلف الأمم والشعوب، وتخلف الأسر والعشائر، وتخلف القبائل والجماعات والأحزاب، وتخلف المدن والقرى، هو انعكاس لتخلف أفرادها تخلفًا ماديًّا أو معنويًّا أو كلاهما معًا، والتخلف بطبعه يستوطن الواقع الذي غاب فيه (المشروع) المتميز الخاص لدى أفراد ذلك الواقع. (المهندس أحمد الأسودي)، وعلى المسلم أن يكلف نفسه بفريضة التفكير، وهَمِّ البحث عن مشروعه الخاص في قائمة المشروعات الخيِّرة المتمثلة في (شعب الإيمان) وتفرعاتها العديدة، التي أعلاها " لا إله إلا الله "، وأدناها " إماطة الأذى عن الطريق "، فلا نهوض دنيوي بلا عملٍ خيِّرٍ بنَّاء، ولا جنة في الآخرة بلا عملٍ متميزٍ سليمٍ خيِّرٍ يقدمه المسلم بين يدي الرب عز وجل ابتغاء مرضاته .

والمشروعات الخاصة، بغض النظر عن سلامتها وخيريتها ومن يكون صاحبها، مسلمًا أو غير مسلم، فإنها تفرض نفسها كواقع ووجود بغض النظر عن حجمها ومساحة ساحتها، فهي تستمد

قوتها من ذلك الإصرار المصيري الذاتي الصبور على إنجاحها دون النظر إلى طبيعة مردوداتها المادية أو المعنوية القريبة أو البعيدة .

إن المشروع الخاص قصة طويلة مريرة من المتاعب والتضحيات والصبر، وربما قدَّمَ بعض أصحاب المشروعات الخاصة كلَّ عمره، وكلَّ ماله وروحه وسعادته المادية ومكانته السياسية والاجتماعية من أجل مشروعه. وكأنه يستعذبُ كلَّ المتاعب في سبيل مشروعه الخاص الذي ربما أقام حضارة، بل هناك مَنْ دمَّرَ البشرية من أجل مشروعه الخاص، فقد دمَّر (هتلر) العالم من أجل مشروعه، وأحرق نفسه من أجل مشروعه، وانتحر في نهاية المطاف .

إن المشروع الخاص يعتمد أساسًا على صاحبه الذي يغذيه بكل عوامل النجاح المادية الأساسية والمساعدة، ويحشد له الإمكانات والقدرات والمتاحات حوله؛ لأنه من الأهمية بدرجة الابن، فلذة الكبد وقرة العين، والابن بطبعه يحمل اسم أبيه، ولكلِّ مشروعٍ متميز أبٌ يُعرَف به، فكأن مَنْ لا مشروع له أشبه بمَنْ لا ابن له يحمل اسمه، المهندس أحمد الأسودي .

إن الإنسان الغربي قد تجاوز الإنسان المسلم المعاصر فصنع حضارته ورسَّخ نهوضها، وقد يعود السر في ذلك إلى إدراك الإنسان في الغرب لأهمية المشروع، وحين فرض هذا الأمر نفسه وتوسع ذلك الشعور في الحس الغربي، فأصبح المشروع الخاص يلازمهم عمليًّا، وبإصرار الكثير منهم، وتبلور كل ذلك في الواقع .

وقد عبَّر هذا عن نفسه في ظروفٍ صعبة عن فعالياتٍ عظيمة وصنع بكل صبر وتضحيات ذاتية تحولاتٍ كبيرة، فعلى مدى قرون أصبح في واقعهم (أي الغرب) صيغًا ومؤسسات من مهمتها بشكلٍ خاص أن تحتضن التميزات الخاصة للناس، أو تساعد المهمومين بها على اكتشافها وتوظيفها، أو تنميتها، أو تأهيلها، وفي مراحل أخرى قد توفر لها الإمكانات المساعدة، أو تتبنى تمويل مشروعاتهم الخاصة أو تحميها، وربما تقوم على تسويقها أو التعريف بها. الأسودي .

ولا يمكن أن يصمد النهوض في أمةٍ أو شعبٍ أو جماعةٍ لفترةٍ طويلة، حين تغيب المشروعات الخاصة، وهمة أفرادها الفاعلين، فالذاتية المأسورة كليًّا للجماعية قد تستنزف في الغالب مدخرات ماضيها لتجهض فاعلية وجودها وكيانها المتميز، والذاتية الفردية المنهكة المسلوبة لا تنهض في الغالب بالأمة، وبالمقابل فالفردية المطلقة في تميزاتها الخاصة قد تستنزف في الغالب قوة الجماعية وتبتز مقدراتها؛ لتصبح الجماعية منهكة، وشيئًا فشيئًا تجد نفسها مسلوبةً لا تستطيع الوفاء بمستلزمات دعم النهوض أو استمراريتها في وجودها ومؤسساتها وكيانها .

ففي الثقافة الغربية - رغم جنوحها إلى الفردية المفرطة - المشروع المجتمعي يساوي كل الذوات (مشروع الجميع)، ومِنْ ثَمَّ اخترع الغربيون اختراعهم العبقري (الديمقراطية) في الوقت الذي ما زلنا

كمسلمين نركض وراء (المستبد العادل)، ونتنافس لاكتساب وضع " الرجل الذي هو كألف "، ونتعالى على " الألف الذين هم كألف " كما يشير إلى ذلك د . المنصف المرزوقي .

وهو ما لاحظه المفكر الأمريكي (بول كنيدي) كفرقٍ واضح بين عالم الغرب والعالم الإسلامي، فأشار إلى أن أبرز عراقيل التنمية في البلدان الإسلامية هي في عدم القدرة على المواءمة بين التعليم والمجتمع، وتخريج خبراتٍ لا تُوظَّف بعد التخرج بناءً على الشهادات التي حصلت عليها، وعدم الاهتداء إلى مناهج حكم توفيقية في أغلب البلدان، وانشغال بعض الدول بالاقتصاد التعبوي، والخلافات البينية، إلا أن (بول كينيدي) ينتهي إلى خلاصةٍ نعتقد أنها ذكية وحقيقية، فيقول: إن العالم الإسلامي يفتقد إلى " ثقافة المشروع "، وهو مصطلح أمريكي يشير في مجمله إلى انعدام رؤية مصيرية متكاملة، أي تحديد مسبق لغاية التنمية والتقدم، ثم السعي لتنفيذها بوسائل التربية، والمؤسسات الاقتصادية، والتطور الاجتماعي .

ويظنُّ البعض أن المشاريع العظيمة ومَنْ قاموا بها قد جاءت صدفةً أو بشكلٍ عفوي، ولم يدركوا أن هذه المشاريع الكبيرة هي نتيجة لمشاريع صغيرة سبقتها، وكانت كالمقدمات بالنسبة لها، والمشروع هو اجتماع (الهدف، والطاقة، والإمكانية، والبعد الزمني) في خطة منطقية واحدة. ومن غير المشروع فإننا لا نحسن تحسس أهدافنا الخاصة، ولن نستغل أوقاتنا على الوجه المطلوب، كما أننا لن نستغل طاقاتنا وإمكاناتنا الاستغلال الأمثل، د . عبد الكريم بكار .

ولا شيء يأتي من فراغ، فصلاح الدين الأيوبي مثلًا لم يظهر فجأة، أو كما نقول في أمثالنا (صميل نِكِعْ مِنْ مَسَبّ)، بمعنى: عصا سقطت من كيس، بل كان نتيجةً لمشاريعَ عظيمة قام بها آل زنكي استغرقت عدة عقود، حيث لم يكن صلاح الدين الأيوبي في بدايته سوى خامة من خامات جيل جديد، مَرَّ في عملية تغيير غيرت ما بأنفس القوم من أفكار وتصورات وقيم وتقاليد وعادات، ثم بوأتهم أماكن تتناسب مع استعدادات كل فرد وقدراته النفسية والعقلية والجسدية، فانعكست آثار هذا التغيير على أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، وسددت ممارساتهم، ووجهت نشاطاتهم، (ماجد الكيلاني) في كتابه (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس) .

والتاريخ الإنساني منذ القدم وحتى اليوم، يعجُّ بالأسماء التي تميزت في اكتشاف وتفعيل تميزاتها، فقدمت للإنسانية مشاريع ناضجة، كثيرٌ منها حتى اليوم تحمل أسماء أولئك الأفذاذ الذين تعاملوا مع تميزاتهم بمسؤوليةٍ وجدية، فتبلورت إلى حالةٍ أشبه ما تكون بمشروعاتٍ خلَّدت عطاءهم، وذكَّرت بهم على مدى السنين والأجيال. الأسودي .

وهذه النهضة الغربية عمومًا لم تحدث فجأةً، بل كانت نتيجةً لملايين المشاريع الفردية والجماعية على مدًى يزيد على خمسة قرون متوالية، وما يميز الغرب في الوصول بنهضتهم إلى ما هي عليه اليوم،

هو أنهم أصروا واستمروا في مراكمة مشروعاتهم الفردية والجماعية وتطويرها حتى آتت أكلها بالنسبة لهم، فلم يستعجلوا ولم يحرقوا المراحل؛ لأن الاستعجال وحَرْقَ المراحل هي العدو الأول لجميع المشاريع الناجحة، ومن الإصرار والاستمرار نجنى النتائج العظيمة، فمن (ثَبَتَ نَبَتَ)، ومن سار على الدرب وصل، وطريق الألف ميل تبدأ بخطوة، شريطة أن تتواصل الخطوات لتصل إلى الألف أو قريبًا منها .

إن هناك الكثير ممن يحبون أن ينجزوا مشاريعهم الخاصة في عالمنا الإسلامي، ولكن كلمة (لو) تقف حائلًا بينهم وما يريدون، فتجد الواحد منهم يقول: لو أنني في المكان الفلاني، أو المنصب الفلاني، أو في المستوى الفلاني، أو عندي الإمكانيات التي مع فلان، أو لو أن لدينا الحرية التي لدى الشعب الفلاني، لأنجزتُ مشروعي، وخدمتُ نفسي ووطني وأمتي والإنسانية من خلال هذا المشروع، يقول إبراهيم طوقان:

أفنيتَ يا مسكينُ عمرَكَ بالتأوُّهِ والحَزَنْ

وقعدتَ مكتوفَ اليدينِ تقولُ: حاربني الزَّمَنْ

إن لم تقُم بالعِبْءِ أنت فمَنْ يقومُ به إذَنْ ؟

وكأن المشاريع لا يمكن أن تقوم لها قائمة ما لم تتحقق لنا أمنيات كلمة (لو)، التي في الغالب لن تتحقق، فكثيرًا ما نطلب المستحيل، وننسى الممكن، ولو استطعنا أن ننجز الممكن اليوم لأصبح المستحيل ممكنًا غدًا .

إن الحل العملي والواقعي هو أن ننجز مشاريعنا من خلال واقعنا وأدوارنا ومسؤولياتنا التي نحن فيها بالفعل، دون أن نطلب أن يتم إخراجنا إلى غيرها، وهذا ما يُفهَم بكل وضوح من حكمة ابن عطاء الله السكندري التي قال فيها: " لا تطلب منه (أي من الله) أن يُخرِجَك من حالةٍ ليستعملك فيما سواها، فلو أراد لاستعملك بغير إخراج "، ولذلك نحن نستمد من الله العون أن يستعملنا فيما نحن فيه، ويوفقنا لإنجاز مشروعاتنا من خلال هذا الاستعمال .

إن الإنسان قد يدرك تميزه الخاص مبكرًا أو متأخرًا، وقد يمارس مشروعه بتلقائيةٍ عشوائية أو بطريقةٍ مُهدَّفة، وقد يبلوره بمشروعٍ مادي أو فكري .. وقد يفعِّل تميزه في نطاقه الذاتي المحدود، وقد تأخذه الأطوار، وقد يمارسه منفردًا، وقد يشاركه فيه آخرون، وقد يحشد له الخبرات والإمكانات الأخرى المساعدة، وقد يكون لمشروعه المتميز مردوده المادي أو المعنوي أو كليهما معًا. الأسودي .

إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا قمةً في (مجموعهم)، وكانوا في الوقت نفسه قممًا (كأفراد) في تميزاتهم الخاصة، وفيما مثَّلَتْهُ تلك التميزاتُ من مشروعاتٍ خاصة، عُرِفَ كلُّ واحدٍ منهم بها،

فهذا أبو بكر (الصديق)، وهذا عمر بن الخطاب (الفاروق)، وهذا عثمان بن عفان (ذو النورين)، وهذا علي بن أبي طالب (رجلٌ يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله)، وهذا خالد بن الوليد (سيف الله المسلول)، وهذا أبو عبيدة بن الجراح (أمين هذه الأمة)، وهذا معاذ بن جبل (أعلم أمتي بالحلال والحرام)، وهذا الحسن وهذا الحسين (سيدا شباب أهل الجنة)، وهذه فاطمة وأمها خديجة (سيدتا النساء في الدنيا والأخرى)، وهؤلاء أمهات المؤمنين (فُضْلَيَات بيت النبوة)، وهذا .. وهذه .. وهؤلاء .. والقائمة طويلة لا تتسع لها هذه المساحة، رضي الله عنهم أجمعين .

وحتى لا نذهب بعيدًا، ونُحلِّق في عالم الخيال، ونعتقد أن ما يُطلَق عليه (مشروع) هو من الضخامة والاتساع بحيث يحتاج إلى ما لا نطيقه وما لا نستطيعه، وليس بأيدينا القدرة على القيام به فإن هذا الاعتقاد خاطئٌ ومُحبِط، ونحن مُطالَبون بأن نتجاوزه؛ لنبني مشاريعنا المتواضعة في بداياتها من خلال إمكانياتنا المتاحة وما وهبنا الله من مسؤولياتٍ وأدوار في هذه الحياة .

ومن الأمور المهمة التي يجب أن ندركها جيدًا أن قوة المجتمع هي مجموع قوة أفراده، وأن الأفراد الضعفاء لا يصنعون مجتمعًا قويًّا، في حين أن مَنْ يصنع المجتمع القوي هم الأفراد الأقوياء، ولهذا فمشروعات الأفراد الأقوياء تصبُّ في شرايين المجتمع لتجعل منه مجتمعًا قويًّا، وإليكم بعض المشاريع القريبة من متناول أيدينا، وبإمكاننا أن نؤسس من خلالها بدايةً لنهضة مجتمعاتنا .

فيمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (الأب)، هو أن يكون أبًا متميزًا في تربية أبنائه، فيكون قد أضاف للمجتمع لبناتٍ صالحة، ويكون قد أنجز مشروعًا استراتيجيًّا للدنيا والآخرة، ومثله (الأم) التي يمكن أن تكون أمًّا متميزة، ولها مشروعٌ مُتميّزٌ في تربية الأجيال القادمة .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذه (الزوجة)، هو حسن عشرتها لشريك حياتها، بحيث تصبح زوجةً متميزة، وعونًا لزوجها (فوراءَ كلِّ عظيمٍ امرأة)، ويمكن أن تكون قدوةً ونموذجًا لسمو العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة. ومثل ذلك (الزوج) الذي يمكن أن يكون زوجًا متميزًا، وله مشروعٌ متميز في العلاقة الزوجية .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (الابن ذكرًا أو أنثى)، هو روعة وجمال علاقة البنوة بالأبوة والأمومة حتى يصير هذا الابن في الطاعة ممَّنْ يُضرَب به المثل، مقتديًا في ذلك (بأُوَيْس القرني) رضي الله عنه، فكثيرون عُرِفوا بمشروعاتهم أو عُرِفت مشروعاتهم بهم، وقد كان المشروع الذي عُرِفَ به (أويس القرني)، فاستحق به أن ينال درجةً عالية عند الله فكان (مستجاب الدعاء)، هو ذلك البر المتميز بأمه، وقد عُرِف بذلك، وأصبح عمقه ممتدًا بعمق تلك الحالة الإنسانية إلى أن يشاء الله .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (المعلم أو الاستاذ الجامعي)، هو دقة الأداء وسعة العلم، وإبداع توصيل المعلومة، ورقي العلاقة بينه وبين من يعلمهم ويربيهم .

وقد يكون المشروع المتميز لهذا الطالب (فتى أو فتاة)، هو اهتمامه بالتعليم، وحرصه على التحصيل العلمي، واكتساب الخبرة والمهارة من معلمه مع طموحه ليس للحصول على الشهادة فقط، بل لاكتساب المعلومة والمهارة والخبرة وحسن توظيفها في حياته وفي نهضة وطنه وأمته .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (المدير أو المسؤول أو الموظف)، هو رقي تعامله مع مَنْ تتوقف مصالحهم عليه، فلا يغادرون مكتبه أو موقعه إلا والابتسامة تعلو محياهم، وألسنتهم تلهج بالدعاء له، ومِنْ ثَمَّ نَشَرَ طيب سمعته وأخلاقه مع كل مَنْ يلتقون بهم .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (الجار)، هو حسن جواره لمن يشاركونه في السكن أو الحي، فيتمنى الناس جواره، ولو اشتروا ذاك الجوار بالمال؛ لما يرون من طيب أخلاقه وروعة تعامله .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (التاجر)، هو صدق وأمانة تعامله مع زبائنه، فيما يبيع ويشتري، فيفضله الناس على غيره عندما يحبون أن يبيعوا أو يشتروا ما يحتاجون إليه .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (الطبيب)، هو قوة تمكنه من عمله فحصًا وتشخيصًا وعلاجًا، مع أمانةٍ وصدقٍ وشفقةٍ في تعامله مع مريضه، فيمنح المريض بتعامله وأخلاقه وطيب كلامه مقدمات الشفاء، قبل أن يعطيه العلاج .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (المفكر، المثقف، الأديب، الإعلامي، العالم، الفقيه، ...)، هو الإبحار في تخصصه، والتعمق في تفاصيل هذا التخصص، ليصبح مرجعًا وحجة، ثم ليكون دليلًا حاديًا لبني قومه، يرشدهم إلى كل خير، ويبصرهم بكل طريقٍ يقربهم من ربهم، ويدخل السعادة عليهم في الدنيا قبل الآخرة .

ويمكن أن يكون المشروع المتميز لهذا (المهني، الحرفي)، هو في إتقان صنعته، والتمكن من مهنته، والاحترافية في حرفته، حتى يصبح مَضْرِبَ المثل في جودة ما يصنع، أو إتقان ما يصلح، أو روعة ما يرسم ويشكل .

هذه أحدَ عشرَ مثالًا لمشاريع يمكن أن تصبح جزءًا من حياتنا، وهناك العشرات والمئات وربما الآلاف من المشاريع التي لا تتسع هذه المساحة لسردها، ولكنها مبثوثة في جميع مناحي حياتنا، ويمكن للواحد منا أن يكون صاحب أكثر من مشروع من هذه المشاريع، وكلُّ واحدٍ منا حسب طاقته واستطاعته، وكلُّ واحدٍ منا، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١﴾ (النور: ٤١)، كما قال ربنا جلت قدرته، وكلُّ واحدٍ منا (مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له) كما قال حبيبنا صلى الله عليه وسلم، وأعتقد أن هذه المشاريع التي تبدو فرديةً، ولا يجمعها رابطٌ في بدايتها، ستصبُّ مع الأيام ومع الاستمرار والإصرار في نهر المجتمع والأمة، الذي يغذي مشروع الأمة الكبير، الذي هذه المشاريع بعض قطراته .

فمهما بدت الأداءات الخيرية الذاتية المتميزة فرديةً فهي في الحقيقة تعزيزٌ للجماعية في كمالها الأدائي، وحين تكون خالصةً لله، فإنها ستصبُّ الخير المنظم والتلقائي في الزخم الجماعي لتشكل سيلًا آنيًّا أو نهرًا أبديًّا متدفقًا .

وسنجد أن الأب والأم المتميزين سيكونان عونًا للابن والطالب المتميزين، وللمعلم والأستاذ المتميزين، وللزوج والزوجة المتميزين، وسيكون التاجر المتميز عونًا ورديفًا للطبيب المتميز وللمسؤول والموظف والمدير المتميزين، والحرفي والمهني المتميزين. وسيكون المفكر والمثقف والأديب والإعلامي والعالم والفقيه المتميزين في خدمة جميع أصحاب المشاريع المتميزة الأخرى .

أما غاية هذه المشاريع التي تبدو في بدايتها كمشاريع فردية، فهو الوصول إلى مشروع الأمة الكبير والجامع، من خلال إنتاج تطبيقات معرفية وخدمية صانعة للمؤسسات والحضارة، تسري فيها روح مقاصد الشريعة الإسلامية، من حفظ النفس، والعقل، والعرض، والدين، والمال، ومحبة العمران والسعي في صناعته، واحترام الإنسان، وتعظيم الأصل والأساس الأخلاقي، والانفتاح على العالم وإفادته والاستفادة منه، وبروز قيمة الطفولة وقيمة المرأة، وحفظ البيئة وحقوق الأكوان (إنسانًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا)، وسريان معنى الربانية في ذلك كله بحيث يفضي بالإنسان إلى ربه، وهو في أجلِّ عبادةٍ وطاعة .

وهو نمطٌ من المشاريع الحضارية وتطبيقاتها، تتسع للمسلم ولسائر الملل والنِحَل، لا يشعر فيه أحدٌ في شؤون المعاملة أنه (مُكرَهٌ)، ولا (مكروه)، ولا مضطهد، حتى مَنْ لم يدخل في هذا المشروع الكبير إلا أنه سيستظل برحمته وعدله وشفقته وإنصافه؛ لأن هذا المشروع مُنتِجٌ للقيم وناقلٌ لها، وهو يصدِّرها إلى الجميع، وأساس هذا المشروع وأصله ومحوره وجوهره هو منظومة الأخلاق والمكارم الإنسانية، والقيم الرفيعة واحترام الإنسانية، والسعي في إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة .

تأسيس عقلية البناء

كان المطرُ يتسربُ من السطح، فقال الضيف لمضيفه: لماذا لا تصلح السقف حتى تمنع تسرب الماء؟ فرد عليه المضيف: كيف أصلحه والمطر ينهمر ؟!

فقال الضيف: ولماذا لا تصلحه بعد توقف المطر؟ فقال المضيف: لأن التسرب يتوقف حالما يتوقف المطر !! (عقووول !!) .

يعجز الإنسان أحيانًا عن فهم بعض العقليات والمواقف والسلوكيات والتصرفات، ويحاول بشتى الوسائل أن يوجد لها مبررًا أو سببًا وجيهًا، ونادرًا ما يُوفَّق، وكثيرًا ما يخفق في ذلك .

نرى بأم أعيننا أننا نستخدم لحل مشكلاتنا حلولًا قد جربناها أكثر من مرة، ولم تنجح، ومع ذلك نُصِرُّ على تجريبها للمرة الألف، دون أن نتوقف ولو قليلًا من الوقت، ونستعمل عقولنا في إدراك عدم جدوى هذه الحلول التي لم نخرج منها بنتيجة، وأن علينا البحث عن حلول أخرى، فالعقلية التي صنعنا بها المشكلة تحتاج إلى تغيير، إذ لا يمكن أن نحل تلك المشكلة بنفس تلك العقلية؛ لأن هذا غير ممكن مهما حاولنا .

إن الإنسان ليعجب من أقوامٍ لا يعترفون بإله، ولا يدينون بدين، ولكن عقلياتهم أوصلتهم إلى ما استطاعوا من خلاله أن يرتبوا حياتهم الدنيا على الأقل، في حين أن مَنْ يؤمنون بالله ويملكون منهجًا ربانيًّا على العكس من ذلك، يعيشون بعقليةٍ يقف الحليم أمامها حيران.

بأيمانهم نورانِ ذِكْرٌ وسنةٌ — فما بالُهم في حالكِ الظلمات ؟

إن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية، كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي، وأننا لا زلنا نسير ورؤوسنا في الأرض، وأرجلنا في الهواء، وهذا القلب للأوضاع هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا .

نحن في أمس الحاجة إلى أن ندخل إلى موقع (الإعدادات) في ملكاتنا العقلية، لنعيد تفعيل هذه الملكات العقلية؛ لتعاود العمل من جديد، ونعيد ضبطها من جديد، لتعمل على الموجات السليمة، سواء بعيدة أو قريبة التردد، ونوجه بوصلتها الوجهة الصحيحة؛ لكي نستطيع أن نرتب أوراقنا من جديد، ونعيد النظر فيما يحتاج إلى (تعزيز)، وما يحتاج إلى (تغيير) .

فالعاديون من الناس يرون كلَّ شيءٍ عاديًّا؛ لأن بنيتهم العقلية والمعرفية هشَّة وضحلة، ولذا فإنهم لا يفرقون بين ما هو متفوق وما هو عادي، وبين ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، وهم لذلك محرومون من الشعور بالدهشة التي يتمتع بها المبدعون والمثقفون الكبار .

التعقل، والتفكر، والتدبر، والتأمل، والملاحظة، وتصور الاحتمالات والحالات بالافتراض العلمي، واستنباط الجزئيات من الكليات، وإدراك الكليات من النظر في الجزئيات، وقياس الأشباه والنظائر

بعضها على بعض، وإجراء أعمال التحليل والتركيب والجمع والتفريق، وإدراك النسب بين المعاني والمدركات، وإدراك الروابط بين المعلولات وعللها العقلية والمسببات وأسبابها المنطقية، وآثار الأشياء ونتائجها المنطقية المستندة إلى العلة العقلية أو السبب المنطقي، وإدراك الأحكام العامة من خلال ملاحظة التجارب المتكررة، هذه الوظائف العالية المستوى تحتاج إلى عقليات ناضجة، وإلى اطِّراح للتفكير والعقلية السطحية الساذجة .

فالتأمل ضرورة لا غنى عنها، وليس التأمل دائمًا كما يتصوره البعض مجرد (سَبَحَات خيال)، وإنما هو (سباحة عقلية) تنطلق من معطيات واقع صحيح، وتستخدم الخيال، لكنه خيالٌ مضبوط، خيال الإبداع والابتكار، وليس خيال أحلام النوم كما يشير إلى ذلك أ . د . سعيد إسماعيل علي .

فكوننا لا نعرف (كيف نتفق ؟) أصبح أمرًا شائعًا، ولكن المشكلة الحقيقية أننا لا نعرف أيضًا (كيف نختلف ؟) على الرغم من أن الاختلاف في الرأي ظاهرة صحية تعرفها كلُّ المجتمعات المتحضرة، إلا أنها تنقلب عندنا إلى مأساة، عندما يتحوّل الاختلاف إلى درجةٍ من العداء والتحزب الضيق والخروج على مصالح الأمة .. مع يقيننا أن الاختلاف أيضًا من طبائع البشر، وسنَّة من سنن الله في الآفاق والأنفس .

أخشى أن أُعمِّم ما ذكره أ . د . عبد الكريم بكار من أن " المرء حين يتقدم في السن، يفقد من مرونته العقلية والنفسية على مقدار ما يفقد من مرونته الجسمية، حيث يكون التيبُّسُ هو سيد الموقف "، أخشى أن أُعمِّم ذلك على مستوى الكيانات والأحزاب وحتى المجتمعات والأمم عندما يتقدم بها العمر، ويصبح التيبس في العقلية والنفسية هو المتحكم بها حاضرًا ومستقبلًا .

علينا أن نؤسس عقلية (شيءٌ خيرٌ من لا شيء) بدل عقلية (كلُّ شيء، أو لا شيء) على مذهب الشاعر أبو فراس الحمداني القائل:

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ بيننا   لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

علينا أن نؤسس عقلية (أنا وأنت) بدلًا عن عقلية (أنا أو أنت) .

علينا أن نؤسس عقلية (كلنا يكسب) بدلًا عن عقلية (أنا أكسب وأنت تخسر أو العكس، أو الجميع يخسر) .

علينا أن نؤسس عقلية (أنا ومن بعدي أبناء وطني) بدلًا عن عقلية (أنا ومن بعدي الطوفان) .

وتأمل معي هذه الحكاية حيث يُحكَى أن حطَّابًا، مفتول العضلات، استيقظ كعادته مبكرًا، وذهب ليحتطب في الغابة، وبدأ الحطَّاب عمله بجدٍّ واجتهاد، ورغم جهده الفائق إلا أن إنجازه كان قليلًا جدًّا، وبينما هو كذلك إذ مرَّ عليه رجلٌ كبيرٌ في السن، ودُهِشَ الرجل من فعل الحطَّاب، فهو يضاعف جهده دون أن يصل إلى النتيجة المرجوة .

لقد مضى الحطَّاب في قطع الشجرة الجافة، وهو يحاول ويحاول، لكن فأسه كان صَدِئًا مُثَلَّمًا، واقترب منه الرجل وقال له: لم لا تأخذ قليلًا من الوقت لتعيد (شَحْذَ فأسك)، فيصبح عملك أسهل وأسرع، وتحصل على حطبٍ كثير بمجهودٍ أقل ؟

أجابه الحطَّاب: ليس لديَّ وقتٌ لأفعل هذا !! عليَّ أن أمضى في قطع الأشجار دون توقف، وأجمع حطبًا كثيرًا، وأريد أن أنتهي من هذا العمل سريعًا ! (عقووول) .

إن الإمكانات العقلية التي وهبها الله لبني البشر شبه متساوية على مستوى الأمم، فليس هناك أمة مختصة بالنابهين، وأخرى مختصة بالأغبياء، لكن من الواضح أن هناك أممًا أفضل وعيًا من غيرها، وهذا في الحقيقة يعود في المقام الأول إلى المعارف والخبرات التي يتعرض لها أبناؤها، وكلُّ واحدٍ منا عبارة عن مخطوطة فريدة، كما يقول د . عبد الكريم بكار، يتمتع بخصائص عقلية ونفسية متميزة، كما أنه يتعرض لتربية، ويعيش في ظروف، ويحمل ذكريات وطموحات متفردة وخاصة .

لقد قال الإمام مالك في زمانه وهو قريبُ عهدٍ بالرسالة : (إنه لا يصلحُ حال آخر هذه الأمة إلا بما صلُحَ به أولها)، وهي من المقولات الخالدة، والأصل أن تُفهَم بعقلية المجددين لا بعقلية المقلدين الجامدين، ولا بد أن تكون هناك علاقة راشدة بين المُجدِد وسلف الأمة، علاقة منهج لا علاقة أشخاص ومنجزات .

وحين يُحسِن المجددون القيام بوظيفتهم هذه، يعمل التاريخ لصالحهم وتكون العاقبة لهم؛ لأنهم يتوافقون مع السنن الإلهية، التي تنصُّ بصراحةٍ صارمة على أن القوم إذا غيروا ما بأنفسهم فسوف يغير الله أحوالهم حسب الميادين التي حدث فيها التغيير النفسي .

فالذين يغيرون أفكارهم الاقتصادية تتغير أحوالهم الاقتصادية، والذين تتغير أفكارهم السياسية تتغير أحوالهم السياسية، والذين تتغير أفكارهم العسكرية تتغير أحوالهم العسكرية، والذين تتغير أفكارهم العلمية تتغير أحوالهم العلمية، والذين تتغير أفكارهم الدينية تتغير أحوالهم الدينية، وهكذا في ميادين الأفكار وما يقابلها من أحوال. د . ماجد عرسان الكيلاني .

لذلك قد يكون المطلوب باستمرار تصويب المعيار في القبول والرفض والمعرفة والإنكار، فإذا وصل وعي الأمة من أفراد وجماعات إلى أن نعرف من كل إنسان وننكر فقد وصلنا إلى الرشد العقلي؛ فلا إنسان بلا (خطأ)، ولا إنسان بلا (خطيئة)، لكن المشكلة تكمن في عقلية التعصب والتحزب والتجني والجهل وتلقي الكلام باللسان، بل وعمى الألوان، حيث يُختزَل تاريخ الإنسان وكسبه في

موقف، كما يقول عمر عبيد حسنة. فإذا أخطأ (أُلغِيَ)، وإذا أصاب (أُلِّه)، وفي كلا الأمرين خروجٌ عن الإنسانية والعقل الراشد .

إن الحقيقة تحتاج إلى فهمٍ دقيق وعقليةٍ ناضجة حتى لا تنكسر طريقة التفكير السليم بالإنسان إذا لم يدرك جواهر الحقائق كما يجب أن يكون الادراك .

وما يقال عن (التفكُّر) الذي يشير إلى القدرة على استعمال المهارات العقلية كلها للوصول إلى الحقيقة، والذي تكررت الإشارة إليه في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعًا، يمكن أن يقال أيضًا عن (التفقُّه)، وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا، مستعدًّا للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود .

لقد حثَّ القرآن على استخدام أكثر من ملكة عقلية للوصول إلى الحقيقة، فحثَّ على قدرة (التدبُّر)، التي اقترنت الإشارة إليها بالقدرة على الربط بين المقدمات، والنتائج واكتشاف الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج، كما حثَّ على قدرة (التذكُّر) التي تشير إلى القدرة على استرجاع الخبرة، ورؤية جانب الصواب فيها، وحثَّ على قدرة (النظر) التي تُعَدُّ قدرةً عقلية تشترك معها قدرات السمع والبصر للكشف عن المجهول .

ورغم هذا التركيز القرآني الشديد على استخدام الملكات العقلية للوصول إلى الحقيقة، إلا أن هناك ملاحظة للدكتور (هشام جعيط) أوردها الأستاذ (راشد الغنوشي) كشف فيها جانبًا من عقلية العرب والمسلمين في حال تراجعهم وتخلفهم، فهم يطلبون الصورة (المثالية) للشيء عوضًا عن تملكه بمساوئه ومحاسنه ثم السعي لمحاولة إصلاحه، كرفض البعض للديمقراطية لما فيها من مساوئ، إنها نزعة عامة تفضل عدم الشيء على وجوده ناقصًا، ولا أدري هل هذا تهربٌ من الحياة أم هو أمرٌ أخطر وأعمق لا أقف على هويته ؟

وخُذْ هذه الطرفة الكاشفة عن بعض أحوالنا في التفكير الساذج، فقد كان هناك رجلٌ يبحث في الضوء عن شيءٍ أضاعه، وطال بحثه، وكان هناك شخصٌ يراقبه، فاقترب منه وسأله: عن أيِّ شيءٍ تبحث ؟ فرد عليه الرجل: أبحث عن شيءٍ ثمين ضاع مني .

فقال له هذا الشخص: وأين أضعت هذا الشيء الثمين ؟ فأشار الرجل بيده إلى منطقةٍ ليس فيها ضوء (مظلمة) وقال: أضعته هناك. فقال الشخصُ مستغربًا ومندهشًا: تقول أنك أضعته هناك. فلماذا لم تبحث هناك وجئت تبحث هنا ؟ فقال له الرجل بكل برود: لأن في هذه المنطقة ضوء، بينما لا يوجد في تلك المنطقة ضوء، إنها منطقة مظلمة !! (عقووول) .

لقد أكدت الدراسات العلمية الأخيرة أن البصمة الخاصة بالإنسان ليست فقط في أصابعه، وإنما هي أيضًا في صوته، وفي عينيه، وفي جلده، وفي دمه، فالأقرب إلى الصواب أن نعترف بأن لكل إنسان بصمة عقلية تجعل التعدد والتباين بين نتاجها الفكري ما يُقعِّد لمشروعيتها وجودًا وفعلًا ؟

فمن عيوب العقلية غير الراشدة استعدادها الكبير للتقديس بغير حساب، ومع التقديس يكون التسليم المطلق، فلا تفكير ولا مناقشة ولا تمحيص ولا بحث، كذلك من عيوب هذه العقلية استعدادها الكبير للتشدد في أمور الدين، وفي غير أمور الدين ولسان حالها يقول: (زيادة الخير خيرين)، وكأن كلَّ زيادة في الدين خير، في حين أن كلَّ نقصٍ مهما صغر فهو أكبر الشرور .. وبهذا يختلُّ الميزان الذي وضعه الشرع لحدود الخير وحدود الشر .

وكما أوضحنا سابقًا أن (العقل) لم يرد باسمه في القرآن، وإنما جاءت الإشارة إلى عملياته مثل التدبر والتفكر والتبصر .. وهكذا، وأهمية هذه النظرة تربويًا، كما يؤكد على ذلك أ . د . سعيد إسماعيل علي تكمن في أننا لا نسعى إلى أن نخزِّن معارف ومعلومات داخل العقل، خاصةً وأننا في عصرٍ عُرِفَ بأنه يمثل عصر المعلوماتية لما يتسم به من سيولةٍ لا مثيل لها في تدفق المعلومات، بحيث أصبح من المستحيل أن يستهدف التعليم تزويد المتعلمين بمثل هذا الكم الرهيب، ومِنْ ثَمَّ فالحلُّ يكمن في تنمية التفكير، وتنمية العقلية الناقدة، بحيث يمتلك المتعلم قدرةً ومهارةً على أن يبحث عن المعرفة بنفسه؛ ليظلَّ دائمًا وأبدًا متعلمًا، وبحيث يملك القدرة والمهارة على الفحص النقدي لما يرد إليه من معلومات، ويملك القدرة والمهارة على توظيف مثل هذه المعلومات فيما هو نافعٌ له ولأمته، ويملك - أيضًا - القدرة والمهارة على حسن الاختيار والانتقاء من هذه المعلومات .

أما تربية القَوْلَبة العقلية والتسخير الإرادي فهي تعني ذلك النظام التربوي الذي يعمل على صبِّ فكرٍ مُنتَقى في قوالبَ جامدة من التفكير، وتوجيه إرادة الإنسان إلى مراداتٍ تحيل الناس إلى (قطعان بشرية) سهلة الحشد والتوجيه لما فيه رغبات الأب المتسلط، والمدير المتسلط، والحاكم المتسلط، والنخبة المتسلطة .

فالخداع والتدليس يمكن أن ينطلي ليس على شخصٍ أو جماعة، بل ربما على شعبٍ بأكمله، وربما يشاركون في صناعته وترديده، وإن الواحد منا يحتاج إلى استقلاليةٍ عقلية، وتفردٍ ثقافي، ومجموعة قيم ومبادئ، ورؤى واضحة وثابتة؛ كي يصبح أكثر تحصنًا أمام ضباب الأفكار المشوهة، والصور المغلوطة، ولكي يكون أشدَّ حدةً في محاربة الزيف والخداع والتضليل .

إن التطرف حركة باطنية نفسية أو عقلية أو هما معًا، بمعنى اقتناع النفس الإنسانية بعقيدةٍ أو بفكرةٍ إلى مستوى الفَيْض، وهو في حدِّ ذاته نوعٌ من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة

الواحدة، بحيث يتراءى للمتطرف أن الزاوية التي يرى منها هي الزاوية الوحيدة للنظر، وأن كلَّ ما سواها باطل .

فعقلية (الممانعة) كثيرًا ما تكون نتاج عقلية (المؤامرة)، فالمرء يتملكه الخوف والارتباك حين يشعر أنه مستهدف، وأن العالم كله ضده .

وهذا يدفعه إلى ردة فعلٍ غير متوازنة، كما يقول د . عبد الحليم أبو شقة، ومعنى رد الفعل في مثل هذه الحالة أن يلابس تفكيرك قدرٌ من الانفعال - سواء كان قليلًا أو كثيرًا - يؤدي إلى ظهور طبقة ضبابٍ رقيقةٍ أو كثيفةٍ على القدرة العقلية، مما يحجبُ الرؤية الواضحة، ويعطل النظرة الشاملة والعميقة لجميع جوانب الموضوع، فيكون الإسرافُ في تقدير جانبٍ ما، مما يجعل النتيجة أو القرار أو الموقف يحمل شططًا .

وتأمل معي هذا المثال: فجأة هبت نسماتٌ قوية بعثرت أوراقك في أنحاء الغرفة، فبدأت تركضُ في أنحاء الغرفة محاولًا بيأسٍ جَمْعَ تلك الأوراق التي بعثرتها تلك النسمات، وفي النهاية انتبهت إلى أنه من الأفضل أن تأخذ نصف دقيقة من وقتك؛ لكي تغلق النافذة .

كثيرًا ما نكون مُطالَبين بالبحث عن السبب الرئيس فيما نحن فيه، أو السبب الحقيقي الذي أوصلنا إلى هذه الحال التي نحن فيها، دون الجري وراء الأسباب والأعراض الثانوية، أي (نسُدُّ الباب الذي يأتينا منه الريح بالفعل؛ لنستريح) .

إن عقلية (الإطفائي) الذي يأتي دائمًا بعد أن تقع الكارثة وتندلع الحرائق، هي عقلية غير مجدية؛ لأنها تأتي بعد وقوع الكارثة، وأفضل ما يمكن أن تقوم به هي (إنقاذ ما يمكن إنقاذه)، بعكس العقلية العلمية التي تحاول أن تتجنب وقوع الكارثة من خلال مَنْع أسبابها ومقدماتها .

ولهذا فإن العقلية العلمية توفر لصاحبها مميزاتٍ خلقية طيبة، مثل (الثقة المعتدلة) بالنفس وبالغير، حيث يعرف حقيقة قدراته وقدرات الغير في إطار تلك القوانين الاجتماعية، ومثل (الصدق) مع النفس ومع الغير، حيث الفرد هنا لا يُفاجَأ بالعجز في أي لحظةٍ من لحظات حياته .

إن العقلية المنهجية تحوّل المعلومات والمعطيات والظواهر والإشارات المشتتة والمبعثرة إلى (أصول ونماذج) عبر التحليل المنطقي وإلى إدراك الروابط الدقيقة التي تربط بينها، (د . عبد الكريم بكار)، وبناء العقلية المنهجية الممتازة سيمكننا من أن نتعامل مع ما نعرفه على نحوٍ جيد، كما يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار ما لا نعرفه، فنراعيه في أحكامنا وقراراتنا وحواراتنا، فتكوين وبناء (الشخصية ذات العقلية العلمية)، أي بعث الروح العلمية، وتأسيس العقلية المنهجية، يؤدي إلى امتلاك الإنسان شخصيةً علمية، تقف موقفًا راشدًا من التغييرات والتجديدات الحضارية، فتقبل ما تقبله عن بصيرة، وترفض ما ترفضه عن هُدًى ووعي .

ونستطيع أن نؤسس على مناقشة الأفكار السابقة الدور الذي يمكن أن تلعبه العبادات الإسلامية في تشكيل العقلية المنهجية، فالصلاة مثلًا تعمل على تشكيل عقلية المسلم، بحيث تجعله يقظًا، ومُنتبهًا بصفةٍ دائمة للوقت، ولمرور كل لحظة، ولاستقبال كل لحظة، والمسلم الذي يكون في يقظةٍ كاملة لأوقات الصلوات الخمس على امتداد اليوم، وفي يقظةٍ لكل وقتٍ داخل الصلاة، هذه الشخصية على هذا النحو، تكون مراقبةُ الوقت ومروره مكونًا من مكوناتها العقلية والسلوكية .

والعقلية العلمية تسعى إلى اكتشاف القوانين والعلاقات، وهي بهذا تحتاج إلى السير في الأرض؛ امتثالًا لأمر ربها ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأنعام: ١١)، والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملَّها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقةٍ دقيقة، تتمثل في أن الإنسان قد يعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيءٍ من مشاهده أو عجائبه، حتى إذا سافر وتنقَّلَ وساح استيقظ حِسُّه وقلبه إلى كل مشهد، وإلى كل مظهرٍ في الأرض الجديدة، (فطول مجاورة الأخطاء يؤدي إلى أن تألفها النفس، ولا تعود تراها)، ولذا حتى نكتشف الأزمة فإننا نحتاج إلى أن نفكر بعقلية المتدبر، السائر في الأرض يكتشف كلَّ جديد، ويتعلم العلاقات بين الأشياء؛ لإدراك أسباب الأزمة والمؤشرات التي سبقتها، ولم يتنبَّه لها .

سأل الطبيب النفسي المريض: هل بمقدورك أن تخبرني أيُّ أيام الأسبوع اليوم ؟ أجاب المريض: اليوم هو الأحد يا دكتور .

سأله الطبيب مرةً أخرى: وغدًا ماذا يكون ؟ أجاب المريض: وغدًا كذلك الأحد، فقال الطبيب مستغربًا: إذا كان اليوم هو الأحد، وغدًا كذلك الأحد إذًا متى يأتي يوم الإثنين ؟!

فرد عليه المريض: الإثنين يأتي يا دكتور عندما نشعر بأن اليوم اختلف عن الأمس، يأتي عندما نشعر بأن الدنيا تقدمت بنا خطوةً إلى الأمام، يأتي عندما تبقى عدالة اليوم أكثر من عدالة الأمس، يأتي عندما نشعر بأن ظلم اليوم أقل بكثير من ظلم الأمس، يأتي عندما نشعر إننا تقدمنا خطوةً أو ارتقينا ولو سنتيمترًا واحدًا، عندها يأتي يوم الإثنين يا دكتور ؟

الطبيب: هذه فلسفة جميلة، وليس فيها ما يُعاب، ولكني أريد أن أعرف قصة مرضك ؟! فرد عليه المريض ببرود: أنا مَنْ ينتظر يوم الإثنين أن يأتي يا دكتور !!

من خلال المشهد السابق بين الطبيب النفسي والمريض يمكن أن ندرك العقلية التي يفكر بها الكثيرون، عقلية يمكنها معرفة الداء، ولكنها تعجز عن وصف الدواء، فانتظار (يوم الإثنين) على مذهب هذا المريض، هي عقلية انسحابية سلبية، ليس لديها رؤية واضحة للحل سوى الانتظار،

سواء كان الانتظار (للمهدي المنتظر)، أو للرجل الذي سيظهر (فيملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَت جورًا)، أو لغيرها من أسباب الانتظار. وهذه العقلية لا تقدم حلولًا، بل أمنياتٍ وأمانيَ لا تقدم ولا تؤخر .

إن من مظاهر الفوضى والاضطراب في عقلية المثقف المسلم أن هناك منظوماتٍ معرفية متناقضة، ومنهجياتٍ متعارضة تتعايش جنبًا إلى جنب في ضميره ووجدانه، فيجد نفسه مضطرًّا إلى استبطان (الفكر التراثي)؛ لتأكيد هويته، (والفكر الغربي)؛ لتحقيق فاعليته؛ لذلك نراه يتعامل مع الوحي وَفْقَ منظومةٍ فكرية في دائرة تصوراته الغيبية وقيمه الأخلاقية وممارساته الشخصية، ليعود ليحتكم في ممارساته الاجتماعية وعلاقاته الاقتصادية والمالية إلى منظومةٍ فكرية صدرت عن تصوراتٍ وقناعاتٍ وقيمٍ مغايرة، والنتيجة تمزقٌ في وعي الفرد يؤدي إلى تناقضات سلوك الفرد واضطراب مسيرة المجتمع، كما يشير إلى ذلك د . لؤي صافي .

كما يلاحظ على الإنسان العربي، والمسلم المعاصر - في كثيرٍ من الأحيان - أنه يستطيع أن يروي ويخطب، ولكنه لا يستطيع أن يناقش، أو يحلل، أو يطبِّق، ويتوصل إلى حل؛ لأن الرواية والخطبة ترتبطان بالقدرة على الحفظ، أما النقاش والتحليل والتطبيق، فهي تتطلب قدراتٍ عقلية عليا من الفهم والتحليل والتأليف والتطبيق، وينعكس هذا العجز على علاقات الأفراد ومواقفهم، فالخطيب أو المتحدث يريد في جميع أحواله أناسًا يستمعون له ويصفقون، لا أناسًا يناقشون، ويعارضون، وحين يستدعي الموقف قدرات عقلية تتعدى الحفظ، تنفجر الانفعالات، ويثور الخلاف، وينفجر التعسف المُخرِّب .

وقد جمع د . أحمد زروق مختلف التصنيفات للقدرات العقلية في قاعدةٍ عامة هذا نصها: " لكل شيءٍ وجه، فطالب العلم في بدايته، شرطه الاستماع والقبول، ثم التصور والتفهم، ثم التحليل والاستدلال، ثم العمل والنشر، ومتى قدم رتبةً عن محلها، حُرِمَ الوصول لحقيقة العلم من وجهها، فعالِمٌ بغير تحصيل ضَحْكة، ومُحصِّلٌ بدون تصور لا عبرة له، وصورة لا يحصنها الفهم لا يفيدها غيرها، وعلمٌ عارٍ من الحجة لا ينشرحُ به الصدر، والعلم ما لم يُنتِج فهو عقيم، والمذاكرة حياة العلم، لكن بشرط الإنصاف والتواضع " .

إن أشكال المقولات التي (تُقولِب) عقلية المرء، هي التي تحدد آفاق فكره وطبيعة امتصاصه للمعارف والتعامل معها، وإن العرض الأحادي للمسائل دون مقارنةٍ أو نقد يكوِّن عقلية البعد الواحد، وينشر روح التعصب والتحزب، كما يؤكد على ذلك د . عبد الكريم بكار .

إننا عندما ننطلق من عقليةٍ واعيةٍ راشدة، نستطيع أن نفهم عقلية (الآخر) وكيف تعمل، ومِنْ ثَمَّ كيف نستطيع مواجهتها إن تطلب الأمر ذلك، فأمريكا - مثلًا - تنطلق في صناعتها من عقلية: ما سننتجه سوف يستهلكه الناس، في حين أن اليابان تنطلق من عقلية: ننتج ما يحتاجه المستهلك،

وشتان ما بين العقليتين، لكن عندما تكون عقليتنا سطحية، فإن المثل الذي ضربه المفكر (مالك بن نبي) ينطبق علينا، فنحن لا نستطيع، بكل أسف، وبتأثير أوضاعنا العقلية، أن نفهم عمل الاستعمار إلا ريثما يثير ضجيجًا، كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة. أما حين يكون من تدبير فنان، أو من عمل قارض (من القوارض الاجتماعية) فإنه يغيب عن وعينا، لسببٍ واحد، هو أنه لا يثير ضجيجًا .

أما على المستوى الإعلامي، والذي يدلنا عليه د . عبد الوهاب المسيري، فيجب أن نضع في اعتبارنا أنه من اليسير على الشعب الأمريكي فهم العقلية الإسرائيلية، والتعاطف مع الشعب الإسرائيلي وقيمه اللاأخلاقية من عنصريةٍ وعنف نظرًا للتشابه بين وجدان الشعبين، وهذه النتيجة ليس فيها دعوة لليأس، وإنما هي مجرد تعرف على عنصر موجود بالفعل، إن لم نعترف به هُزِمنا وأُفشِلَت خططنا، أما اعترافنا به فيساعدنا على معرفة حدود ومدى أي حملة إعلامية نقوم بها .

إن الشعب الأمريكي وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد و(الكاوبوي)، لا يفهمون سوى منطق (القوة)، ولا يعترفون إلا بالنتائج العملية المباشرة؛ لذلك فالإعلام الذي لا تسنده قوة أو وضعٌ قائمٌ بالفعل ما هو إلا دعوة للأخلاق الحميدة التي لن ينصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق .

وفي قصة رمزية، يُحكَى فيها أن أحد الملوك أُهدِيَ إليه صقران رائعان، فأعطاهما لكبير مدربي الصقور لديه ليدربهما، وبعد شهور جاءه المدرب ليخبره أن أحد الصقرين يُحلِّقُ بشكلٍ رائعٍ ومهيبٍ في عَنان السماء، بينما الصقر الآخر لم يترك (فرع الشجرة) الذي يقف عليه مطلقًا، فما كان من الملك إلا أن جمع الأطباء من كل أنحاء البلاد ليعتنوا بالصقر، ولكنهم لم يتمكنوا من حثه على الطيران، فخطرت في عقله فكرة: " ربما عليَّ أن أستعينَ بشخصٍ يألف طبيعة الحياة في الريف، ليفهم أبعاد المشكلة "، وأمر فورًا بإحضار أحد الفلاحين، وفي الصباح ابتهج الملك عندما رأى الصقر يحلق فوق حدائق القصر، فسأل الفلاح الماهر: " كيف جعلت الصقر يطير ؟ "، فأجاب بثقة: " كان الأمر يسيرًا جدًّا، (لقد كسرتُ فرع الشجرة الذي كان يقف عليه) .

تشير هذه القصة الرمزية في إحدى دلالاتها إلى هشاشة الأوضاع التي تستند إليها وعليها بعض العقليات السطحية، مُفضِّلةً البقاء على هذه (الفروع) الهزيلة والضعيفة، مع مقدرتها على التحليق والارتفاع عاليًا فوق هذه الأوضاع القريبة من الأرض .

والمتأمل في معجزة الرسالة الخاتمة يجد أنها معجزة عقلية فكرية مجردة خالدة، دافعة للتفكر والاجتهاد والتوليد في كل زمان ومكان، ربَّت عقل الإنسان، وزودته بأدوات البحث العلمي، وحرَّضته على النظر والاعتبار، ووحّدت أبجديات القراءة بالمواءمة بين علوم الحياة وعلوم المادة، وجعلت الأنفس (علم الإنسان) والآفاق (علم الكون بكل مكوناته) ميدان هذا الكسب المعرفي، وميدان النظر

والاستبصار والكشف العلمي للسنن والأسباب والقوانين الناظمة لحركة الحياة والأحياء وتحصيل البراهين والآيات الدالة على الحقائق من خلال الملاحظة والاختبار .

والثابت أن توفر القدرات العقلية عند الإنسان هي منطلق فاعليته وحركته في التاريخ، وشرطٌ في أدائه لوظيفته الحضارية، والتوازن سنة إلهية نتعلم منها الكثير، نتعلم منها الإنصاف وقول الحق في الغضب والرضا، ونتعلم منها التفكير المستقيم، ونتعلم منها بناء العقلية العلمية، وترك عقلية الانطباعات، فالعقلية المتحررة هي التي تكون لديها الرغبة الحقيقية في الاستماع إلى وجهات النظر والالتفات إلى جميع الحقائق مهما كان مصدرها، وحساب جميع الاحتمالات، والاعتراف بجواز وقوع الخطأ، كلُّ ذلك دونما تحيُّز إلى جانبٍ أو حقيقةٍ أو احتمالٍ على حساب آخر .

ومن أولى خطوات التنمية العقلية، تحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد الأعمى، وتحريره من الغرور، وتحريره من الهوى، وتحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف سواءً أكان هذا السلف هو سلفنا نحن، أم سلف الحضارة الغربية، حسب وصف أ . د . سعيد إسماعيل علي .

والعقلية المعاصرة هي العقلية التي تعمل على مقتضى المنهج العلمي الرصين في محاكمة الأشياء، بالإضافة إلى غناها بالمفاهيم التي أثبتت التجارب صحتها وفاعليتها في تيسير سبل الرقي، وفي مقاومة الصعوبات وحل المشكلات التي أنتجتها الحضارة الغربية الراهنة .

والمنهجية العلمية تحرر العقل المسلم من أسر العقلية الماضوية السكونية التي تتجاهل الصيرورة التاريخية والتغيير النوعي فتسلب من المسلم فاعليته باستسلامه لما يظنه حتميات، كحتمية الانحدار من سيءٍ لأسوأ، وانتظار الخلاص بدلًا من المشاركة فيه، واستجداء العدل بدلًا من العمل على بناء قواعده؛ وبذلك يصبح التغيير والتجديد قضية الفرد المخلص لا مسئولية أمة. د . رانيا رجب شعبان .

إن الإبداع له وسطه، وأعظم شرطٍ فيه هو عشق المعرفة والتجديد، وكسر جمود التقليد ورتابة الروتين، وإعادة النظر في المسلمات، هل هي فعلًا بديهيات عقلية لا تقبل المراجعة ؟ وتحريض ملكة النقد الذاتي، وتوليد روح الدهشة والفضول لرؤية العالم من حولنا دومًا جديدًا ناميًا متطورًا، ورؤية العلم دون حدود؛ لأنه من علم الله الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا .

والإبداع سلوكٌ لطُرُقٍ جديدة، والولوج من مداخل مبتكرة، والتفكير بعقلية حرة، وهذا كله يتطلب درجةً من الاستقلال الفكري والنفسي عن المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، كما أشار إلى ذلك أ . د . عبد الكريم بكار .

والتفكير الخلاق ملكة عقلية مُوزَّعة على البشر بصورٍ مختلفة، تتمثل في القدرة على الدفع بالتفكير لِيُولِّد أفكارًا جديدة تسهم في تغيير أفعالنا وسلوكنا، وهو ما يقوم على مقوماتٍ متعددة منها

مسألة الفروض الراسخة، وتحدى الأوضاع القائمة، والتخلص من قبضة القواعد المستقرة (القيود والآصار) إلى حد انتهاكها إن لزم الأمر، ويعني كذلك التضحية بتلك الطمأنينة وليدة أوهام البساطة الذهنية التي ينعم المرء في خوائها بالاسترخاء العقلي، وتجنب الخوض في المشكلات، أو إرجاء النظر فيها، ويعني كذلك معاناة المضي وحيدًا، وتحمل ضريبة الخلاف مع الآخرين إلى حد العداء أحيانًا. كما يوضح ذلك د . نبيل علي .

والتساؤل - أيضًا - مهارة عقلية قبل أن تكون لسانية، إنه انفتاح العقل على ظاهرةٍ صغيرة أو كبيرة تقتضي أن يُبحَث عن سببها، ومن خلال العمل المتدرج تتضاءل عقلية المستحيل، وتنمو عقلية الممكن .

إن الحضارة ليست أشياء تُشتَرَى وتُقتنَى، بل هي أفكار وعقلية تُبنَى وتمتلك سر التطوير، وإذا أردنا اختصار تعريف الحضارة وَفْقَ رؤية د . خالص جلبي، فيمكن ترميزها بثلاث كلمات: إيجاد (الأفكار والأنظمة)، وصيانتها، وتطويرها، في علاقةٍ جدليةٍ نامية .

لقد ساهمت عقلية استيراد المناهج والسياسات الجاهزة من الآخر بتكريس العجز والتخلف، وقضت على عقلية الإبداع والمبادرة، وتحوَّل الأمر إلى نوعٍ من الاستسلام والتبعية وتكديس الأشياء وعطالة الأفكار، وإن الذي نعاني منه أننا نتعامل مع منتجات الحضارة بنفسية وعقلية إنسان يعيش في زمنٍ تسيطر فيه قيم التخلف .

لقد تربت الكثير من الشخصيات الاسلامية العملاقة على عقلية الانفتاح، والاستفادة من كل التيارات في الداخل الإسلامي، وعلى المقدرة الفائقة في التواصل بالآخر خارج الإطار الاسلامي، وعلى سبيل المثال فقد جنَّبَت السياسة التعليمية التي تتلمذ عليها الإمام الشوكاني، من خلال تعدد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، أقول جنَّبَته مساوئ التلقي عن أستاذٍ واحد، والتي من مخاطرها ذوبان شخصيته في شخصية الشيخ، فيصير له مُقلِّدًا، ولآرائه متعصِّبًا، ذلك أن تعدد الشيوخ يكسب الطالب العقلية التحليلية النقدية بفضل المقارنة بين دروسهم في منهجي الإلقاء والتحليل، والحاصل أن كثرة الشيوخ يوجد حوارًا مستورًا في عقل الطالب ابتداءً، ثم حوارًا مكشوفًا بينه وبين شيوخه، فيتلقى من كل شيخٍ جوابًا على سؤاله مختلفًا عن غيره .

ومثل هذا الحوار والنقاش يفتق ذهن الطالب، ويوسع أفقه، ويثري معرفته، ويكشف عن زوايا النقص عند هذا، ونقاط القوة عند ذاك، فيتسع عقل الطالب وقلبه لاتفاق الناس واختلافهم فلا يُحجِّرُ واسعًا، ولا يَضِيقُ صدره بمخالفيه ما دام رأيه يرتكز على دليلٍ ناهضٍ تقوم به الحجة .

ومما سبق يمكن القول:

إنَّ عقلية الإمام الشوكاني الفقهية التجديدية انبثقت أساسًا عن تلاقح مختلف العلوم الشرعية، وعدوله عن الإفراط في التخصص المتقوقع في فرعٍ من فروعها، ذلك أن التخصصات الفرعية في أي نوع من أنواع العلوم - مهما كان الاجتهاد فيها - لا تنتج على المستوى العلمي والمعرفي إبداعاتٍ كثيرة. لكن التجاوز الجزئي للتخصص الفرعي، والتمكن من سائر التخصصات الفرعية الأخرى التي تندرج ضمن نوعٍ واحد من أنواع العلوم، والتلاقح المعرفي بينها، هو الذي يفتح آفاق الاجتهاد والتجديد. كما تشير إلى ذلك د . حليمة بوكروشة .

إن قيمنا الثقافية والإعلامية السائدة، وتربيتنا في بيوتنا ومدارسنا، وعلاقات الشيوخ بطلبتهم والأساتذة بتلاميذهم، تتوارد في الغالب على ثقافة الصمت، وتعمل بخلاف المبدأ العُمري الحكيم " قل يا ابن أخي ولا تَحقِرَنَّ نفسَك ". فالكبير يُسكِت الصغير، والزوج يُسكِت الزوجة، والصبيُّ يُسكِت البنت، والمعلم يُسكِت التلميذ، والمدير يُسكِت المدرس وهلمَّ جرًّا .. وما زالت قيمنا تغري بتأجيل المشكلات بدلًا عن مواجهتها، والأخذ بالحلول التلفيقية، والاشتغال بالأعراض والنتائج بدلًا عن الأسباب والمقدمات .. وما زلنا نظنُّ أن غياب رأي معارضٍ أو ناقدٍ أو مُستدرِكٍ هو علامة صحةٍ وعافيةٍ وكمال، مع أن تلك الحالة أشبه بالجسم الذي يفتك به المرض ويتغلغل في أطرافه دون أن يصدر عنه إنذارٌ من ألمٍ أو حُمَّى .

وهذه العقلية جعلت منا أمةً نموذجيةً في إخفاء الحقائق، والخوف من الوضوح، والهروب من مواجهة المشكلات، والتنصُّل من المسؤولية، والبروز بالمظهر اللبق .. فصار للمرء وجهان، الظاهر منهما خيرٌ من المستور، مع أن الأصل أن يكون باطن المرء خيرٌ من ظاهره .

تأسيس نفسية البناء

هناك تجربة نفسية قام بها أحد العلماء تمثلت في إحضاره لمجموعةٍ من الفئران، ووضعها في إناءٍ زجاجيٍّ كبير ممتلئ لمنتصفه بالماء. وكان الإناء الزجاجي كبيرًا حتى لا تستطيع الفئران التعلق بمخالبها، أو القفز منه إلى الخارج، وقد قام هذا العالم بحساب الوقت الذي سيستمر فيه كلُّ فأرٍ في السباحة، ومحاولة الخروج قبل الاستسلام للغرق .

طبعًا كان هناك اختلافٌ بين كل فأرٍ وآخر، لكن في المتوسط كان الفأر يحاول لمدة خمسةَ عشرةَ دقيقةً تقريبًا، ثم يستسلم للغرق .

قام العالم بعد ذلك بإعادة التجربة لكن مع بعض التعديلات، فكان عندما يرى الفأر في لحظاته الأخيرة على وشك الاستسلام للغرق، كان يقوم بإخراجه من الإناء وتجفيفه، ويتركه يستريح لبعض الوقت، ثم يضعه مرةً أخرى في الإناء ! فعل ذلك مع كل الفئران، ثم أخذ يحسب متوسط الوقت في المرة الثانية، تذكر أن المتوسط الأول كان خمسةً عشرةً دقيقةً تقريبًا، بينما بلغ في المحاولة الثانية عدة ساعات .

ملاحظاتٌ على التجربة:

1- بدايةً لا بُدَّ أن نأخذ في الحسبان أننا أوردنا هذه التجربة؛ للاستئناس وضرب المثل، وليس للمطابقة بين عالم الإنسان وعالم الحيوان، فهناك فوارقُ كبيرة بين هذين العالمين، وإن كانت هناك بعض الأمور التي قد يتشابهان فيها .

2- من خلال تحليل التجربة يتضح لنا أن الفئران في المحاولة الأولى فقدت (الأمل) بسرعة بعد أن تأكدت أنه لا سبيل للخروج، في حين كان لديها في المرة الثانية خبرة سابقة بأن هناك (أملًا)، وأنه في أي لحظةٍ قد تمتدُّ لها يدُ العون لتنقذها، لذا استمرت أكثر في انتظار تحسن الظروف .

3- بغض النظر عن التحليل المذكور لنتيجة التجربة، وما قد يقال عن أهمية الأمل، فهناك نقطة أودُّ إلقاءَ الضوء عليها، وهي مدى ارتباط القدرة الجسدية بالحالة النفسية، ليس لدى الحيوان فقط، بل هي أكثر ارتباطًا وتأثيرًا في حياة الإنسان، وكم سمعنا عن أناسٍ أقوياء الجسم أقعدتهم حالتهم النفسية، في حين سمعنا عن آخرين كانت أجسامهم ضعيفةً وهزيلة، ولكن نهضت بهم حالتهم النفسية والإرادية .

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا　　تَعِبَت في مُرادِها الأجسامُ

4- من الملاحظ أن معظم البشر يستطيعون بذل المزيد من الجهد عندما يجدون التشجيع والدعم النفسي، وكثيرًا ما يتوقفون عن العمل عندما لا يجدون التقدير الكافي من قبل الآخرين .

5- ذهن الإنسان وحالته النفسية يفرضان قيودًا على قدراته الجسدية، أو على الأقل يُوهِمَانه بوجودها ! واليأس والقنوط والإحباط والحُزن يُضعِفُ القلب، ويُوهِنُ العزم، ويَضُرُّ بالإرادة، ولا شيءَ أحبُّ إلى الشيطان من حزن المؤمن ويأسه .

6- عندما يفشل الإنسان في أمرٍ ما فيخاطبُ نفسه قائلًا: لقد فشلت هذه المرة، وأسباب فشلي كذا وكذا، وسأعمل على تجاوز هذا الفشل، عندما يخاطبُ الإنسان نفسه بهذه الطريقة، فإن ذلك سيدفعه بشكلٍ لا شعوري إلى تلمُّس طرق النجاح، والتغلب على فشله .

أما إذا فشل الإنسان في أمرٍ ما، فخاطب نفسه قائلًا: أنا إنسانٌ فاشل، ولن أنجحَ أبدًا، فإن ذلك سيدفعه بشكلٍ لا شعوري إلى أن يسلك طرق الفشل، ولن يرى فرص النجاح، حتى لو كانت ماثلةً أمام عينيه .

وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع، فعندما تكون هناك صورةٌ سلبية في أذهان أفراد هذا المجتمع أو ذاك عن مجتمعهم، فإن ذلك سيدفع بالمجتمع في طريق الهبوط والتراجع دائمًا .

إننا عندما نُردِّدُ فيما بيننا أوصافًا سلبيةً ننعتُ بها مجتمعنا، فإننا نساعد على تكريس هذه الأوصاف وانتشارها في المجتمع .

وقد أجرى بعض العلماء تجربةً على ضفدع، حيث قاموا بوضع هذا الضفدع في إناءٍ به ماء، ووضعوا الإناء على نارٍ هادئة، وكلما سخن الماء، كان الضفدع يعدل درجة حرارة جسمه، فتظلُّ المياه عاديةً ومقبولةً بالنسبة له، حتى وصلت درجة حرارة الماء إلى درجة الغليان، وحينها مات الضفدع .

وقد بدأ العلماء القائمون على التجربة بدراسة سلوك الضفدع، الذي كان مع كل ارتفاعٍ لدرجة الحرارة يعدل حرارة جسمه، مع العلم أن الوعاء الذي وُضِعَ فيه الضفدع كان مفتوحًا، ومع ذلك لم يحاول الضفدع القفز منه، حتى عندما وصلت درجة حرارة الماء إلى حالة الغليان، مما أدى إلى موته، وتوصل العلماء إلى أن الضفدع استخدم كلَّ طاقته في معادلة درجة حرارته وتأقلمه (تكيُّفه) مع المناخ الذي حوله (حرارة الماء) على الرغم من صعوبة ذلك، إلى أن وصل إلى درجةٍ لم يتبق عنده فيها طاقة للتأقلم، ولا حتى لإنقاذ نفسه .

وقد استنتج العلماء أن الذي قتل الضفدع ليس الماء المغلي فقط، ولكن إصرار الضفدع على أقلمة نفسه إلى حدٍّ أفقده الطاقة اللازمة لإنقاذ حياته .

تعالوا بنا لِنَعِشْ بعض التأملات من خلال هذه التجربة:

1- عندما يكون الإنسان في علاقةٍ مع الآخرين - أي نوع من أنواع العلاقات الإنسانية - وليس مستريحًا فيها، ومع هذا يحاول أن يتأقلم ويتكيف بشتى الوسائل، إلى درجةٍ تصل إلى فقدان

شخصيته، بل ويعدِّل من نفسه إلى درجة الذوبان في الآخرين، ويستخدم في ذلك طاقته الجسدية، والنفسية، والعقلية، والعصبية، إلى أن يصل إلى استنزاف طاقته كلها، عندها سيفقد نفسه، فلا تستهلك طاقتك كلها، واعرف متي تقفز، وتنقذ ما تبقى منك ومن نفسيتك وشخصيتك، بل وحياتك بكاملها .

2- كلُّ واحدٍ منا يدخر في دمه وأعصابه وبنيته النفسية طاقةً هائلة وقدرةً عجيبة على التأقلم، ولديه إمكانية كبيرة للعيش بهناءٍ وسرورٍ في أوضاعٍ قد لا تكون جيدةً أو مريحة، وعلينا اكتشاف ذلك، حتى لا نعيش تحت ظروفٍ سيئة، في حين نظنُّ أننا نعيش في ظروفٍ جيدة .

3- طبيعة الإنسان طبيعة مُؤَجَّلة، أو غير مُنجزَة تمام الإنجاز، بمعنى أن المرء حين يُولَد يكون قد ورث عن آبائه وأجداده خصائص روحية وعقلية ونفسية ومزاجية محددة، لكنه في الوقت نفسه يملك الكثير من الاستعدادات والقابليات التي تمكنه من أن يختلف اختلافًا كثيرًا عن أشخاصٍ لديهم نفس الموروثات النفسية، د . عبد الكريم بكار .

4- قدرة الإنسان على التصرف بأحواله النفسية أكبر بكثير من قدرته على التصرف بأحوال جسمه، وإن شدة الاختلاط بالناس، تستهلك الشخصية، وتستنفد الطاقة الفكرية والنفسية للمرء، ولذا فهو محتاجٌ إلى نوعٍ من التوازن في الخلطة والعزلة؛ لكيلا يستنزف طاقته في الاختلاط بالآخرين، ولا ينعزل إلى درجة أن يصبح على هامش المجتمع .

5- من المضاعفات النفسية للظلم، أنه حين يرزح الناس تحت وطأته، ويحرمون من العدل زمنًا طويلًا يشيع في خبراتهم وتراثهم سوءُ الظن، ويفقدون الثقة، ويعتقدون أن وراء كل دعوةٍ أو سلوكٍ تآمرٌ وفساد، مما يفسد العلاقات ويحول دون تنظيم الصفوف والجهود، وينتهي بمشروعات النهضة والتنمية إلى الإخفاق والفشل، د . ماجد الكيلاني .

6- تتمتع وسائل الإعلام المبرمجة والممنهجة بتأثيرٍ قوي جدًّا في تغيير الناس، حيث تستخدم تقنياتٍ فائقة، تستند إلى دراساتٍ نفسية واجتماعية دقيقة وعميقة، مما يجعل موقف كثيرٍ من الناس تجاهها التسليم والاستسلام، كحال الضفدع الذي ذكرناه في التجربة السابقة .

7- البنية النفسية للإنسان هشة جدًّا حيث تَستخِفُّه كلمة الثناء، وتَفْتِنُه النظرة العابرة، وتقضُّ مضاجعه الكلمة النابية، لذا فنحن محتاجون إلى تبادل الكلمات البنَّاءة، والنظرات الداعمة والمشجعة، وأن يلقى بعضُنا بعضًا بالوجه الطلق والابتسامة الحانية .

8- إن الإسلام بما انطوى عليه من قوةٍ روحية، كان للذين يتمسكون به درعًا من أن تحطمهم الأيام، أو يذوبوا في بوتقة المستعمِر، يتقمصون شخصيته، (مالك بن نبي) .

9- المسلم مُطالَبٌ بأن يُدخِل حاجاته النفسية والجسدية جميعًا في منطقة الوعي، فيلبي منها ما هو حق (وإن لنفسك عليك حقًا)، ويقاوم الرغبات والحاجات التي تشكل الاستجابة لها انحرافًا عن المنهج الرباني القويم .

10- منح الله الإنسان طاقةً روحيةً ونفسيةً محددة، فإما أن يصرفها فيما يعود عليه بالنفع والفائدة، وإما أن يستنزفها في التوافه والصغائر اليومية، فالعظماء يملكون القدرة على الاحتفاظ بهذه الطاقة الروحية والنفسية، بل وتركيزها بحيث يصبح تأثيرها كبيرًا ومردودها عظيمًا، أما العاديون فما تكاد تتجمع لديهم مؤشرات هذه الطاقة إلا سارعوا إلى تبديدها في مواقف ومعارك ومشاغبات وجدالات ساذجة، تُنهِك قواهم وتتركهم أجسادًا هامدةً لا روح فيها .

ويمكن القول إن سوء الحظ عقدة نفسية. فسيِّءُ الحظ هو ذاك الذي يتخيل الخيبة والفشل في كل عملٍ يقوم به، فهو يريد النجاح، ويحرص عليه، ويدأب في سبيله، ولكنه في أعماق عقله الباطن يتصور الفشل ماثلًا بين عينيه، وهو في كل هذا يحسب لكلام الناس ألف حساب، وتتأثر نفسيته ويتعكر مزاجه إذا استشعر رائحة النقد في كلام الآخرين الموجَّه له، فهو بكلام الناس ينهض ويتعثر، ويقوم ويقعد، وربما تحول إلى ما يشبه قطعة الإسفنج التي تمتصُ كلَّ ما حولها من الأفكار الملوثة المرهقة لنفسيته والمنهكة لصحته الجسمية .

وفي هذا الإطار يعطينا الشيخ علي الطنطاوي درسًا على تجربةٍ جرت أمام عينيه، يحدثنا عنها فيقول: ذات يوم كنتُ مُتوجِّهًا للمطار مع صاحب التاكسي " الأجرة "، وبينما كنا نسير في الطريق وكان سائق التاكسي ملتزمًا بمساره الصحيح انطلقت سيارةٌ من موقف سياراتٍ بجانب الطريق بشكلٍ مفاجئ أمامنا، وبسرعة ضغط سائق الأجرة بقوةٍ على الفرامل، وكاد أن يصطدم بتلك السيارة

الغريب في الموقف أن سائق السيارة الأخرى " الأحمق " أدار رأسه نحونا، وانطلق بالصراخ والشتائم تجاهنا !! فما كان من سائق التاكسي إلا أن كظم غيظه، ولوَّح له بالاعتذار والابتسامة !! استغربتُ من فعله وسألته: لماذا تعتذر منه وهو المخطئ ؟ هذا الرجل كاد أن يتسبب لنا في حادث صِدام ؟

هنا لقَّنني سائق التاكسي درسًا، أصبحت أسميه فيما بعد: قاعدة (شاحنة النفايات) قال: إن كثيرًا من الناس مثل شاحنة النفايات، تدور في الأنحاء مُحَمَّلة بأكوام النفايات (المشاكل بأنواعها، الإحباط، والغضب، والفشل، وخيبة الأمل، وسوء الحظ)، وعندما تتراكم هذه النفايات داخلهم، يحتاجون إلى إفراغها في أي مكانٍ قريب، فلا تجعل من نفسك مكبًّا للنفايات !! فالناجحون في حياتهم، والأسوياء في نفسياتهم لا يسمحون أبدًا لشاحنات النفايات أن تستهلك يومهم وأعصابهم وتفكيرهم !!

وفي ظني أن الإنسان الذي يحملُ نفسية العبد لا يمكن له أبدًا أن يندمجَ اندماجًا إيجابيًّا في المجتمع أو الجماعة التي يعيش فيها، حتى لو كانت جماعة عبيد، لكنه يختلطُ بها ويعايشها؛ لأن (الرق الشعوري والفكري) لا يسمحُ لشيءٍ من الطلاقة والتدفق الداخلي بالتفتح والاندفاع، وهما شرطان أساسيان للاندماج المجتمعي السوي كما يقول د . عبد الكريم بكار .

والخصائص النفسية لا بُدَّ من استخدامها وتدريبها كالعضلات لتقوى، وإذا تمَّ إهمالها ذَوَتْ وضعفت حتى كأنها غيرُ موجودة، ومِنْ هنا يعجز العبدُ عن التصرف الحر، لا لأن كيانه النفسي مختلفٌ في أصله عن كيان الحر، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف، وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار في استعباد الشعوب نفسيًّا، إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتُستعبَد على مر الأيام، (محمد قطب) .

وهذا ما يؤكده مالك بن نبي من أن فاعلية الفكرة رَهْنٌ بشروطٍ نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان .

فالفكرة من حيث كونها فكرةً ليست مصدرًا للثقافة، أعني عنصرًا صالحًا لتحديد سلوكٍ ونمطٍ معينٍ من أنماط الحياة، فإن فاعليتها ذاتُ علاقةٍ وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية التي ينطبع بها مستوى الحضارة في المجتمع، ولذا فإن القوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال تقع بين حالين من أحوال النفس، لا يوجد وراءها إلا الخمول والرخاوة في جانب، واليأس والعجز في جانبٍ آخر .

والعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربطُ ما بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعلاقة الاجتماعية التي تربطُ الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظلُّ العلاقة الروحية في المجال الزمني .

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك في حديثه عن الشخص (الإمَّعة)، وهو يشير إلى حالةٍ يعجز فيها الإنسان عن الاستفادة والانتفاع من الشيء الذي بين يديه، وهو ناتجٌ عن الحالة النفسية والفكرية التي يعيش عليها الإنسان الكلُّ الذي ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٧٦)، لا لأن الخير غير موجود، ولكن وضعه هو الذي يعجزه أن يأتي بأيِّ خير .

إن أهم ما يحتاجه التقدم هو اتخاذ القوى الروحية والمعنوية أساسًا للنهوض والتغيير، فأساس التقدم والتخلف يبدآن في المحتويات النفسية والفكرية ثم ينتشران في ميادين الحياة المختلفة، وعندما تتمازج الأفكار (العقلية) مع الأحاسيس (الروحية) والمشاعر (القلبية) بمقادير مناسبة فإنها تُكوِّن ما يسميه مالك بن نبي بـ (التوتر الداخلي) - أي الإيماني - مهما كان ما يؤمن به المجتمع .

والصحة النفسية تُعْدِي، والمرضُ النفسي يُعْدِي أيضًا، والقانون الجسدي يسير باتجاهٍ واحد (أن المرض هو الذي يُعْدِي)، والقانون النفسي الفكري يسير باتجاهين (الصحة والمرض كلاهما يُعْدِي)، والقرآن في حياة المسلم ليس مجموعة أفكار، بل هو فوق كونه حقًّا واضحًا، ينشئ حالةً نفسيةً في قارئه، كما أن مواصلة تلاوة القرآن تصنع ذائقةً فكريةً وشعورية يميز بها الإنسان بين الحق والباطل حتى وإن لم يتمكن من التعبير عنها .

والانبهار بـ (الآخر) يعتبر واحدًا من أهم المعيقات النفسية أمام الإنسان العربي المسلم، والتي تحدُّ من قدرته على الإبداع والعطاء، وتجعله أسيرًا مُكبَّلًا لواقعه، غيرَ قادرٍ على الفعل والتأثير، حسير البصر، لا يملك أن يجاوز تخوم الضرورات التي فرضها منطق تآكل الذات، وتغوُّل الآخر في الواقع السياسي العالمي .

مِنْ جانبٍ آخر فقد أكدت الكثير من الدراسات كما يشير إلى ذلك د . فهد العودة أن جنوح الشباب إلى التطرف يرجع إلى أسبابٍ نفسية، ومن أهمها عدم إشباع الحاجات الضرورية، أو النمو المضطرب للذات، أو بسبب الحرمان من الوالدين وخاصة الأم، بل إن 78 % من أسباب ظهور تلك المجموعات المتطرفة هو بديلٌ لما يعانيه الفرد من الحرمان النفسي .

فالتطرف حركة باطنية نفسية أو عقلية أو هما معًا، بمعنى اقتناع النفس الإنسانية بعقيدةٍ أو بفكرةٍ إلى مستوى الفَيْض، وهو في حدِّ ذاته نوعًا من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الواحدة، بحيث يتراءى للمتطرف أن الزاوية التي يرى منها هي الزاوية الوحيدة للنظر، وأن كلَّ ما سواها باطل .

والاستكبار - كذلك - حالة نفسية على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، فهو يُعَدُّ فكرةً خاطئةً عن النفس، تجعل الإنسان مستكبرًا، يقول ما لا يفعل، ويدعي ما لا يقدر عليه، كلُّ ذلك ناشئٌ من التقدير الخاطئ للواقع والسُّنَن، ناشئٌ من نظرٍ ذاتيٍّ محدود، والإنسان ذو الفهم الصحيح والإدراك الجيد لوقائع التاريخ لن يكون مستكبرًا، إذ إن الاستكبار منبعُه فراغٌ في الفهم، وفراغٌ في إدراك الحقيقة .

ومن جانبٍ آخر، لعلَّ الأساليب الدفاعية، أو الأفكار الدفاعية - في أحيان كثيرة - تشكل نوعًا من الراحة النفسية؛ لأنها في النهاية تعني فيما تعني إعفاء النفس من المسؤولية، وإيجاد الذريعة لها عن عملية البناء، والواجب الحضاري المطلوب والغائب .

إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسةً عميقة، كما يؤكد على ذلك المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، وأدرك منها موطن الضعف، فسخَّرنا لما يريد، كصواريخ مُوجَّهة، يصيب بها من يشاء، فنحن لا نتصور إلى أي حدٍّ يحتال؛ لكي يجعل منا (أبواقًا)

يتحدث فيها، و(أقلامًا) يكتب بها، إنه يسخِّرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخِّرنا له، بعلمه، وجهلنا، ولأن الاستعمار قد أخذ في حسابه جميع العناصر النفسية التي تُكوِّن هذا الموقف السلبي، فهو يدرك أن الوسط الإسلامي مصابٌ بشيءٍ من ضعف الإرادة، الذي يتركنا في حيرتنا أمام بعض الألغاز فلا نحاول حلها، أو بصورةٍ أعم إننا نقف في منتصف الطريق لا نحاول الوصول إلى نهايته، وهذا يتجلى في هروبنا من المشكلات حينما تفاجئنا .

وقد نكون على جانبٍ لا بأس به من البلادة أو من الادعاء، إذا قدَّرنا أن الاستعمار يجهل هذه الأوضاع النفسية الكامنة فينا، كما نكون على جانبٍ هام من العبث إذا قدرنا أن الاستعمار يعلم هذا ولا يستغله، وهو بالفعل يستغله أيَّما استغلال .

وكمثالٍ على خطورة ما تمثله الناحية النفسية من هزيمةٍ قبل بَدْء المعركة، فقد كان (التتار) يدخلون في حربٍ نفسية مع الشعوب التي كانوا يغزونها، فيقومون ببث جواسيس لهم بين الجماهير لتحطيم روحهم المعنوية عن طريق نشر الإشاعات عن مدى قوة التتار ومدى بطشهم؛ ليهزموا بتلك الإشاعات الشعوب قبل أن تصل جيوشهم إليها .

وثمَّةَ مواضيعُ يُحظَر فيها البحثُ على مستوى العالم الإسلامي، وهي تلك المواضيع التي تكشف خريطة المجتمع النفسية والاجتماعية والاقتصادية ومراكز القوى فيه، فيعيش المجتمع كلُّه أعمى عن نفسه، مكشوفًا أمام مَنْ يستعمره عسكريًّا أو ثقافيًّا .

إن السيادة الوطنية تعني نوعًا من التحكم الجيد للأمة في مصيرها المادي والمعنوي، وهي لن تحقق ذلك ما لم تكسر حالة التبعية التي أوجدت لدى الكثير من أبناء المسلمين نفسية (المتسول) وأخلاقه وعلاقاته وطموحاته، فالبطالة - مثلًا - لا تسبب شُحًّا في الموارد الشخصية للعاطلين عن العمل فحسب، وإنما تسبب لهم ارتكاساتٍ نفسية واجتماعية خطيرة، وهذا ما نلاحظه بوضوح في كثيرٍ من الأوطان الإسلامية .

وكما أن التشدد في التربية قد يُخرِجُ مِنْ فتىً ما إنسانًا عصاميًّا، فإنه قد يكون مدمرًا للبنية النفسية لفتًى آخر، وكلُّ واحدٍ منا عبارة عن مخطوطةٍ فريدة، يتمتع بخصائص عقلية ونفسية متميزة، كما أنه يتعرض لتربية، ويعيش في ظروف، ويحمل ذكريات وطموحات متفردة وخاصة، د . عبد الكريم بكار .

وفي أحيان كثيرة نعمُدُ إلى التبسيط؛ لإشباع حاجةٍ نفسية أو اجتماعية، والتبسيط للأمور عدوٌّ لدودٌ للملاحظة والتجريب والتخصص .

إن تشغيل الأجهزة النفسية الضامرة، يتحول بموجبها المرء من عبدٍ يتلقى الأوامر فقط، إلى إنسانٍ حُرٍّ ينفذ ما يقتنع به، وإن كلَّ ظاهرةٍ اجتماعية لها جانبٌ نفسي، وكلُّ ظاهرةٍ نفسية لها

جانبٌ اجتماعي، وإن " مَنْ يحتقرُ أمته ينتحر، ومَنْ يحتقرُ الآخرين فهو عنصري " كما يقول نيتشه، وبناءً على ذلك يجب أن نعتمد ثلاث آليات نفسية، ثلاثًا بثلاث كما يقول د . خالص جلبي: التحرر من العنف يحرر من الخوف، وتأكيد مفهوم السُّنَنِية يحرر من الخرافة، والإيمان بلا إكراهٍ في الدين يحرر من المنازعات .

إن النتائج الحسنى تكون لها مقدمةً نفسيةً مباركةً محمودة، فمن تعكرت دواخله اضطربت ظواهره، ومِنْ هنا كان التوكلُ والتفويضُ إلى الله سببَ قوةٍ نفسيةٍ للمؤمنين، بل عنوانًا من عناوين الإيمان واليقين، (محمد الراشد) .

والإنسان المؤمن يحسُّ بمتعةٍ روحيةٍ فائقة حين يقوم بعملٍ ليس واجبًا عليه، هذه المتعة الروحية والنفسية إنما هي عاجل الجزاء والمثوبة من الله تعالى لهذا الإنسان على ما قدَّم من خيرٍ لمجتمعه؛ لأنه عزَّ وجلَّ أكرم مِنْ أن نعامله نقدًا، ويعاملنا نسيئةً .

العلم طريق البناء

" مَنْ أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومَنْ أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومَنْ أراد الدنيا والآخرة معًا فعليه بالعلم "، هذه المقولة الشائعة لها أساسٌ من الصحة، وإن كنا نعتقد أن طريق الآخرة في حياة الإنسان المسلم تتم عبر المرور بطريق الدنيا، وكلاهما يسيران على نورٍ من العلم والإيمان .

ولهذا فستبقى أمة العلم غير أمة الجهل على كل الأصعدة، وسيبقى إنسان العلم غير إنسان الجهل على كل المستويات، وسيبقى إنتاج إنسان العلم غير إنتاج إنسان الجهل بكل المعايير، وستبقى وضعية الإنسان المتعلم غير وضعية الإنسان الجاهل بكل المقاييس، وهذا يذكرنا بالسؤال القرآني الخالد الذي يشير إلى عدم التساوي بين الأمتين والإنسانين والوضعين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾ (الزمر: ٩) .

وبناءً على ذلك، يمكن القول أن الكرامة في كل شيء، والعلوُّ والرفعة في كل أمر، والسمو والإحسان في كل وضع، حتى الإيمان على مكانته وسموه، يتوقف كلُّ ذلك على الرصيد الذي يملكه الإنسان من العلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ (المجادلة: ١١)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ ﴾ (فاطر: ٢٨) .

لقد اهتم القرآن بثمرة النظر العقلي، وهو العلم والمعرفة، اهتمامًا كبيرًا، حيث ورد لفظ (العلم) في القرآن أكثر من (900) مرة. وجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلم الذي هو طريق النهوض فريضةً على الناس جميعًا، فقال: (طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم) .

إن دينًا يبدأ فيه وَحْيُ السماء بالأمر بالقراءة، التي تعد مفتاح العلم والمعرفة، لَهُوَ دينٌ يريد أن يُخرجَ إنسانًا بمواصفاتٍ خاصة، يكون ماضيه غير ماضي الجهلاء، وحاضره غير حاضر الأميين، ومستقبله غير مستقبل الأغبياء والساذجين، إنه دينٌ يريد أن يعلم الإنسان باسم الله الخالق الأكرم، يريد أن يعلمه بالقلم؛ ليتخلص من الأمية الأبجدية والمعرفية والفكرية والسياسية ... إنه دينٌ يريد أن يعلِّم الإنسان مالم يعلم، وكم وراء كلمة (ما لم يعلم) من علومٍ تحتاج إلى اكتشاف، وأبحاثٍ تحتاج إلى تجريبٍ وبراهين وأدلة، وفرضياتٍ تحتاج إلى نفي أو إثبات .

إن الجهل ظُلْمٌ وظلامٌ واستبدادٌ وتعطيلٌ لإنسانية الإنسان، وإن المعرفة هي مفتاح النصر وبناء الحضارة، وإن الاستثمار في العلم هو استثمارٌ لبناء الحاضر واستشراف المستقبل، وإن الصبر على مرارة التعلم ومعاناته وإن كان في بدايته مُحرقًا نوعًا ما، إلا أنه في نهايته مُشرِقٌ بكل تأكيد .

ومَنْ لم يذُقْ مُرَّ التعلُّمِ ساعةً تجرَّعَ ذُلَّ الجهلِ طُولَ زمانِهِ

إن مَنْ يظنُّ أن كُلْفةَ العلم وتحصيله مرتفعة سيكتشف أن كُلْفةَ الجهل أضعاف ذلك بكثير، ولكن بعد فوات الأوان، ومن خلال عشر وقفات، هذه إحداهن، سنواصل السير في طريق العلم باعتباره طريق البناء .

ولنبدأ القصة من أولها، فالضدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء، وكلما كان الفارق بين الضدين واسعًا، كانا على طرفَيْ نقيض، وكما بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والجمال والقبح، والليل والنهار، من تمايزٍ واختلاف، نجد أن ما بين العلم والجهل من تمايزٍ واختلاف كما بين السماء والأرض، وكما بين الحياة والموت وكما بين النور والظلام .

إن الله هو العليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العالِم هو الجاهل، وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرَّبَ أحدٌ إلى الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شيءَ من العلمِ ممقوتٌ عند الله، ولا شيءَ من الجهلِ محمودٌ لديه .

وعلى مدار التاريخ كان الإقبال على التمسك بتعاليم الإسلام القويمة مُقترنًا بارتقاء وعي الناس ومعارفهم، ورحم الله ابن القيم حين قال: ما من مديحٍ للعبد في القرآن الكريم إلا وهو بسبب (العلم)، وما من ذمٍّ للعبد في القرآن الكريم إلا وهو بسبب (الجهل) .

والجهل هو الذي يحوِّل الإنسان إلى أداة، كما أن عدم نشر المعرفة هي من أكبر الجرائم، وقد جاء التوحيد لإيقاظ مَلَكة العلم والتحرر من التبعية للأصنام والتقليد، فالعلم والإيمان مترادفان عند مَنْ يتذوق كُنْهَ الأمور، كما أن الشرك والجهل سواء .

والإشكالية الكبرى أن الجهل يُمَكِّن أصحاب الامتيازات من التلاعب بالعقول، فالجاهل يمكن التلاعبُ به وعليه، ويمكن استخدامه ضِدَّ مصالحه، ويمكن أن يخون نفسه عن جهالة، ويمكن أن يكون أداةً لأصحاب الامتيازات، كما يقول (جودت سعيد) .

إن الجاهل يُشبِهُ ما سماه القرآن الكريم بـ (الكَلُّ)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾ (النحل: ٧٦)، والآية تشير إلى أربع مواصفاتٍ يقودُها الجهل، ويجمعُها العجز، حسب وصف الأستاذ (الخضر بن حليس):

1- (أَبْكَمُ): لا يملك (حرية التعبير) وصراحة القول، فغيره ناطقٌ باسمه مُعبِّرٌ بالقول عنه .

2- (لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ): عاجزٌ عن الإنتاج ألغى عقله؛ ليُنِيبَ غيره في التفكير عنه، فاضمحلَّت طاقاته، وضمرت قدراته العقلية .

3- (وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ): عالةٌ على غيره، مُصابٌ بشَلَلٍ عقلي وفكري يُقعِدُه عن العطاء .

4- (أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ): محاولات غيره في إعادة إنعاشه وتفعيل طاقاته غيرُ مجدية، ونتائج تصرفاته خائبة غير منتجة .

إن الجهل بذاته يُولِّدُ الخطيئة والرذيلة، أما المعرفة الحقة فهي التي تُولِّدُ فينا حُبَّ الخير والسعي إليه .

وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، كما يؤكد على ذلك المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، فإن الجهل في حقيقته وثنية؛ لأنه لا يغرس أفكارًا، بل يُنصِّبُ أصنامًا، وهذا هو شأن الجاهلية، فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنيةً ساذجة، ولم يكن عجيبًا أيضًا أن مَرَّ الشعبُ العربي بتلك المرحلة، حين شيَّدَ معبدًا للأقطاب (الدراويش) المتصرفين في الكون، ومن سُنَنِ الله في خلقه أنه (عندما تغرُبُ الفكرة يبزغُ الصنم، والعكس صحيح أحيانًا) .

والجهل هو أخطرُ مشكلةٍ واجهها الإنسان على مدار التاريخ، والمشكلة الكبرى أن يكون المرء جاهلًا بأنه جاهل، فيدعي المعرفة دون أن يمتلكها .

ويا لَلْأسف ! فليس هناك أقبح من الجهل حينما يتزيَّا بزيِّ العلم، وينبري للكلام، فالجهل المحدود كجرحٍ ظاهرٍ يمكن علاجه، أما جهل العالِم فهو غيرُ قابلٍ للشفاء؛ لأنه أخرق، أصم، مغرور .

ودعوني أقول لكم قولًا يُثْبِتُ لكم أن جميع الذين لا يسلكون سبيل الرشد يخافون من العلم، وبتعبيرٍ آخر، جميع الذين لا يعرفون العلم يخافون منه؛ لأنه سيزيل جهلهم، وهم يظنون أن زوال جهلهم زوالٌ لوجودهم؛ لأن وجودهم مبنيٌّ على الجهل، وهذا وَهْمٌ تسبَّبَ فيه الجهل الذي يعيشون مرارته دون أن يدركوا ذلك .

إن من أشدِّ أنواع الجهل خطورةً جهل الإنسان بنفسه؛ لأنه يسببُ له الكثير من الارتباك، ويُشوِّهُ تعامله مع الله ومع الناس، كما يحرمه من معرفة الفرص المتاحة له، والأخطار التي تهدده، كما يقول الدكتور (عبد الكريم بكار) .

وتتلخص أزمة التعليم المعاصر في تزايد الأمية بنوعيها: أمية الجهل بالقراءة والكتابة، وأمية الجهل برسالة الإنسان في هذه الحياة، وكلتا الأميتين آخذةٌ في الازدياد بين الناس وسط عصرٍ تميز بانفجارٍ حقيقي في المعرفة، كما أن انتشار الأمية على نطاقٍ واسعٍ يجعل الناس متشابهين إلى حدٍّ

بعيد، فالجهل كالموت في إضفاء صفة التوحد"، فذو الجهل يروي الجهل عن نظرائه "،(محمد الراشد) .

والبيئة التي يسودها الجهل - والجهل فنون، وهو شبيهٌ بالجنون - لا تتمكن من إدراك أبعاد عديدة للأشياء، ولذلك فنخبة أبنائها تميل إلى التصلب في تعاملها مع الأشياء .

والعلم بالشيء هو الطريق القويم للتعامل الراشد معه، والجهل به لا يمكن إلا أن يقود إلى سوء التعامل معه؛ وذلك لأن لكل شيءٍ طبيعته وظروفه الخاصة به، ومعرفة ذلك هي التي تدلنا على ما علينا فِعْلُه تجاهه .

ولذا كان الجهل مصدرًا عظيمًا للتفكير المضطرب والمواقف المتناقضة، كما أنه كان - ويكون أيضًا - مصدرًا للخوف من أشياءَ لا يقول بالخوف منها عقلٌ ولا نقل .

وإذا ساد الجهل وقلَّ العلم - كما يؤكد على ذلك الدكتور بكار - يصبح تحكم العادات والتقاليد بسلوك الناس أكبر من تحكم المبادئ والأحكام الشرعية، كما أن تأثير رقابة الناس يصبح أكبر من تأثير الوازع الداخلي .

وإذا أجدب المجتمع من العلماء وساد الجهل دبَّ الاضطراب، وشاعت الفتنة، وسادت الخرافة، فلم يعد هناك ما يمنع الناس، لا حدود ولا قيود، فالجهل يحرر الإنسان من كل فضيلة، ويسلبه كلَّ ذرة إنسانية .

ويتسع انتشار الخرافة كلما زادت درجة الجهل والقهر والعجز، والجهل يشكل الأساس لكل ألوان التخلف، وكل أنواع المشكلات .

يقول (مونتسكيو) في مقدمة كتابه (روح القوانين): " في الزمن الذي يسود فيه الجهل - والجهل ظُلْمٌ وظُلْمة - لا يوجد عندنا مجالٌ للشك، ولا حتى عندما نفعل (أكبر الخطايا)، وفي زمن العلم - والعلم عدلٌ ونور - نرتجف حتى عندما نقوم (بأفضل الأعمال) " .

إن الجهل وسوء الظن بالله، هو الذي يدفعنا إلى (قول ما لا نفعل)، أو (فعل ما لا نقول)، ولم يعد التساؤل اليوم عما تجب معرفته، بل عما لا يجوز الجهل به .

وقد أسَّسَ (سقراط) ما يمكن أن نُسمِّيه (علم الجهل)، حيث يرى أن ذلك هو المقدمة لطَرْد الخرافة، وإضاءة قناديل المعرفة، وقد لاحظ الرجل أن الناس لا يُعرَفون بدقة معاني الكلمات التي يستخدمونها على نحوٍ واسع، مثل العدل والظلم والشرف والعار والخير والشر، فكان يظهر بمظهر غير العارف، ويسألهم عن معاني ما يدورُ على ألسنتهم من كلام، فيكتشفون أنهم لا يعرفون إلا القليل، وأنهم بعيدون جدًّا عن الدقة والتحديد .

و(سقراط) هو الذي اكتشف المفهوم بما ينطوي عليه من دلالةٍ ومغزى، وعلى يديه توصل الإغريق لأول مرة إلى هذه الأداة التي في متناول يد الإنسان بحيث يستطيع بواسطتها أن يحشر غيره بين فكي كماشة منطقية، فلا يفلت من قبضتها إلا عند التسليم بما يلي: (إما أنه لا يعرف شيئًا، أو أن هذا - ولا شيءَ سواه - هو الحقيقة بعينها) .

إن القضاء على الجهل هو الشرط الأساسي للتحرر الدائم، والطريق الوحيد للرقي والازدهار، وفي هذا يقول ابن القيم: " الجهل شجرةٌ تنبتُ فيها كلُّ الشرور، وكما أن الحوار هو تبادلٌ للعلم والمعلومات، فإن الجدال هو تبادلٌ للجهل، والجهل من جذور الظلم، أو على الأقل مادةٌ له "، وَفْقَ مقولة المفكر: علي شريعتي .

والتجارة بالأديان كما يؤكد ابن رشد هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل، فإن أردتَّ التحكم في جاهل، فما عليك إلا أن تُغلِّف كلَّ باطلٍ بغلافٍ ديني .

والاستبداد صنفٌ من أصناف الوثنية، فالوثنية صنفان: اعتقادية وسياسية، وهي في جذورها ترجع إلى الجهل، ومعنى الجهل وعمله هو تلبيس الأشياء واختلاطها، وكما ينبغي على الدولة أن تدعم رغيف الخبز فإن من واجبها أن تدعم رغيف العقول (العلم) كما قال أحدهم، فالتخلف كما يكون بالجوع يكون بالجهل، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وقد صِرْنا كمسلمين لا نئِدُ البنات اليوم؛ لأن قانونًا ورثناه عن الإسلام لا زال يمسكنا، ولأن قانونًا جنائيًّا يوقفنا عند حدنا، ولكن إذا لم ندفنهن على قيد الحياة في التراب، فإننا ندفنهن في الجهل كما يقول المفكر (مالك بن نبي) .

ويمكننا أن نضع مقارنةً بسيطةً بين العلم والجهل، تزيد الأمر وضوحًا، والتمييز بينهما رسوخًا:

1- يساعد العلم على تطوير الأوضاع الاقتصادية في المجتمعات، مما يؤدي إلى انخفاض نسبة الجرائم، ومعدلات الفقر المرتفعة، ونسبة البطالة، في حين يساعد الجهل على تفشي مثل هذه الأمور

2- يُوفِّر الجهل بيئةً خصبةً لنمو التطرفات، مما يؤدي إلى ضياع الأمم وتدهورها، في حين يؤكد العلم على أن الناس متساوون لا فرق بينهم، مما يضعهم كلهم على أرضيةٍ واحدة، إلى جانب قدرته على خلق معايير أخرى للمفاضلة فيما بينهم، مبنية على أخلاقهم الرفيعة، ومقدار اندماجهم في مجتمعاتهم، وحجم الإضافات الإيجابية التي أحدثوها خلال حياتهم، مما يحفّزهم على التقدم، والتطور، بدلاً من التأخر والتراجع .

3- يُصعِّب الجهلُ من قدرة الإنسان على تسيير أمور حياته، في حين يُعتبَر العلم وسيلةً مهمةً لتسهيل حياة الناس، وخيرُ دليلٍ على ذلك حجم المخترعات الكبير الذي جعلها متوفرةً دائمًا بين أيدي الناس كافةً؛ نظرًا لانخفاض أسعارها، وفعاليتها الكبيرة في حياة الإنسان اليومية .

4- يساعد العلم على جعل الإنسان قادرًا على استغلال الثروات الطبيعية وتوظيفها في عملية التطور والتقدم، أما الجهل فيجعل الإنسان غيرَ قادرٍ على مراوحة مكانه، فلا يحدث له التطور المنشود .

5- يحرر العلم الإنسان من الأوهام، والأفكار السلبية، والعبودية للآخر القوي، فهو قادرٌ على مَنْحِه قوةً لا نظير لها، على عكس الجهل الذي يجعل منه كائنًا تابعًا للآخرين، غير قادرٍ على امتلاك إرادته، أو على الأقل التحرر من الأوهام التي تسيطر عليه .

6- يجعل العلمُ الإنسانَ قادرًا على معرفة مزاياه، وقدراته التي يمتلكها، مما يساعده على أن يكون كائنًا مميزًا، وفعَّالًا، أما الجهل فهو يعمي الإنسان عن الضوء الموجود في داخله، والذي لا يحتاج إلا إلى قليلٍ من النظر فقط .

ولم يتوقف تَوْقُ الإنسان وسَعْيُه للمعرفة، وكذا تحصيله للقدر الأكبر من العلوم منذ تلك اللحظة التي علَّم الله تعالى فيها آدم - عليه السلام - الأسماء كلها، ولهذا فإن تطوُّر وعي الإنسان، وقدراته المعرفية والعلمية لا يزال قائمًا، ولا يمكن أن يتوقف مهما حصل، فالعلم لا حدود له، وخاسرٌ من يظنُّ أن الشهادة الجامعية تُشكِّلُ نهاية هذه الرحلة الممتعة .

إن العلم ليس قوةً معاديةً لأيِّ شيء، ولا مُنافِسةً لأي شيء، والعالم شخصٌ لا يهدد أحدًا، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد، وكلُّ المعارك التي حُورِب فيها العلم والعلماء كانت معارك أساء فيها الآخرون للعلم، ولم يكن العلم ولا أصحابه هم المسؤولين عنها، فالعلم في أساسه منهجٌ أو أسلوبٌ مُنظَّمٌ لرؤية الأشياء وفهم العالم، (د . فؤاد زكريا) .

وهي رؤية جديرة بالتأمل والاهتمام، فـ " العلم إصلاح تفكير، وليس إعطاء معلومات، إحلال تصورات صحيحة ومعارف مُمحَّصة محل تصورات ومعارف خاطئة، وليس إضافة معلومات ممحصة إلى ذهنٍ متشبع بثقافة غير ممحَّصة، العلم يقظة فكرية، ومراجعة شاملة، وتساؤلات موصولة، وشكوك حافزة، والعلم المحصور بإعطاء معلوماتٍ لا يقدم علمًا بروحه وفاعليته ودلالته وأضوائه وتأثيره، وإنما يصير تفاريق من مسائل مبعثرة تهضمها الثقافة السائدة، وتحيلها لصالحها لا لصالح مغزى العلم " .

وما أثار انتباه المفكر الجزائري في أوروبا هو (روح العلم)، أكثر من العلم نفسه، فقال موضحًا هذه الحالة وعدم انتباه أغلب الطلبة المبتعثين لها: " ثم أدركت بأن هذه (الروح) بهذا التألق وهذه الجاذبية الإنسانية، أي كلُّ فعالية العلم الغربي، تمرُّ دون أن ينتبه لها أحدٌ من غالبية الطلبة المسلمين الذين يسعون عند قدومهم أوروبا للظفر بشهادةٍ جامعية فقط "، وهو ما أكَّدَ عليه د . عمر فروخ بقوله: " قلما رأيتُ تلميذًا يُدرِكُ أن العلم إنما هو استعدادٌ لخوض غمار الحياة " .

إن الجهل مرتعُه وخيم وعواقبُه كارثية، سواءً على مستوى الفرد نفسه، أو على مستوى المجتمع، أو على مستوى العالم كله، فكلما تفشى الجهل في منطقةٍ ما تفشت معه الأمراض المجتمعية التي تنخر في جسد المجتمع، مما يؤدي إلى إلحاق الأضرار التي قد تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتى تختفي، فالجهل أصل كلِّ الشرور كما قال أفلاطون، وبسبب الجهل ينجم الثراء الفاحش والفقر المدقع بشكلٍ محايث، وينجم عنه الطغيان والخضوع بشكلٍ محايث أيضًا، وبسببه قد ينجم الاستبداد أو الفوضى، الجهل هو أساس الفساد وعدو الإبداع، ومنبع كل فساد، كالفساد السياسي، والفساد المالي، والفساد الفكري والروحي، والفساد السلوكي .

إن فقر العلم كفقر الدم لا يُعِينُ على نشاط، ولا يُجوِّد معه إنتاج، وغزارة العلم مع ضحالة الفقه تضليلٌ للسعي وضياعٌ للثمرة، فالعلاقة بالله سبحانه وتعالى عقيدة وعبادة بحاجةٍ إلى العلم، والعلاقة بالناس والتعامل معهم بحاجةٍ إلى العلم، والعلاقة مع الكائنات الأخرى - غير الإنسان - بحاجةٍ إلى العلم، والعلم في ظلال هذا الدين الحنيف ليس معرفةً باردةً يتمتع بها العقل، أو ثقافةً نظرية، أو فلسفةً أرسطية، ولكنه العلم الذي ينتج عملًا، فما أن تصل المعلومة إلى مكانها في كيان المسلم حتى يحدث ذلك التفاعل المنتج للطاقة الفاعلة. إنه تفاعلٌ مع كيان الإنسان كله، فهو (أي العلم) للعقل " معرفة "، وللقلب " يقين "، وللجوارح " طريقة عمل "، وكلما عظم العلم كان الأداء أحسن حتى يصل في النهاية إلى الإحسان الذي يُعَدُّ أعلى مراتب الدين .

والرسوخ في العلم يؤدي إلى كمال العبادة المتمثلة في نتائج ثلاث هي:

الأولى: أنه يُولِّد في شخصية العالِم محبة كاملة لله من خلال العلم بنعمه .

الثانية: أنه يُولِّد في نفس العالِم رجاءً وتوكلًا كاملين على الله بسبب العلم بقدرته .

الثالثة: أنه يُولِّد في نفس العالِم خوفًا كاملًا من الله وحده من خلال العلم بقوته وجبروته وسلطانه، د . ماجد الكيلاني .

والعلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذي يعطي مجالًا للعلم، وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام، يريده علمًا في ظل الإيمان، وهو يخدم مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (العلق: ١)، وهكذا طلب القرآن قراءةً مقيدةً بقيدٍ خاص، وهو أن تكون باسم الله، وبهذا تكون مُوجَّهةً إلى الخير .

والإسلام يفضل طلب العلم على العبادة غير المفروضة، ولو عَلِمْنا نحن المسلمين كيف نستفيد من العلم في خدمة إيماننا لأدركنا أن نتائج استخدام العلم أجدى من وصفنا للإسلام بأنه دين العلم، لاسيما أننا بعد ذلك، وفي بعض الأحيان، لا نثق بالعلم، بل نخاف منه .

إن عِلْم (تغيير ما بالنفس، وما ينبغي أن نغيره)، والزمن الذي يحتاج إليه إذا استخدمت الإمكانيات بكفاءة، هذا العلم هو الذي يُخرِجُنا من الحيرة التي نعيش فيها .

إن التسخير يأتي نتيجة العلم بسنن الله في خلقه، كما يشير إلى ذلك المفكر السوري (جودت سعيد)، فالعلم والتسخير والسنة (القانون)، أمورٌ مرتبطةٌ بعضها ببعض، فالسنة قانون الله، والعلم هو معرفة هذه السُّنَن، والتسخير نتيجة هذه المعرفة .

والعلم والعمل يسيران متوازيين مع بعضهما البعض، فالعمل يطرحُ أسئلةً على العقل، تلجئ الإنسان إلى مزيدٍ من البحث والنظر والعلم، والعلم يولِّد أفكارًا ومبادرات، والمبادرات حين تتنزل على الواقع تشذِّب وتطرح أسئلةً جديدة، وهكذا تتولد الحياة في الأفكار، ويزداد الإنسان علمًا ويرتقي، د . جاسم سلطان .

والعمل بلا علمٍ فيه خَلَلٌ كبير، فصواب العمل مُقترِنٌ بالعلم الذي قاد إليه، ولمكانة العلم كقائدٍ للقول والعمل بوَّبَ الإمام البخاري بابًا في صحيحه سماه (باب العلم قبل القول والعمل)، لقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ (محمد: ١٩)، فبدأ بالعلم، وقليلٌ من العلم مع العمل به، أنفعُ من كثيرٍ من العلم مع قِلَّة العمل به .

وقد طالب الإسلام المسلمين بالتعليم المستمر؛ لأن طلب العلم فريضة، كما طالبهم بعدم التوقف عند مرحلةٍ معينة، بل هو (تعلُّم من المهد إلى اللحد)، دون غرورٍ أو تكبرٍ أو ادعاء، وحديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يحثُّ المسلمين على ذلك بقوله: " لا يزالُ الرجلُ عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظنَّ أنه قد عَلِمَ فقد جَهِل "، وهو قولٌ يقطعُ بأن العلم طريقٌ يُسار عليه، كما يقول د . زكي نجيب محمود، وليس نهايةً يُوصَل اليها، فالعلم منهاجٌ قبل أن يكون نتيجةً مقطوعًا بصوابها، العلم تيارٌ متدفق، كلُّ موجةٍ فيه تتبعها موجة، في حركةٍ تدومُ ما دام للعقل نشاطه .

العلم يجعلُ الناسَ أكثر قدرةً، وأكثر كفاءةً، وأكثر نفعًا للمجتمع، حيث برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة لا يمكن التلاعبُ بهم بسهولة، وأنهم الأقدر على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، وكلما أوغل الإنسان في العلم وَفْقَ تعبير د . صالح الشامي كَبُرَ علمه بعِظَمِ جهله، ذلك أن العلم يُبصِّره بآفاقٍ لم يكن يعلمها، ويفتحُ له مسالكَ ما كان يظنُّ وجودها .

والرؤية الاسلامية تؤكد أن الإيمان يؤدي إلى العلم، والعلم يؤدي إلى الإيمان ويشده، والعلم بالله يُورِثُ الخشية منه، وهي متناسبة معه، والعلم تأمُّلٌ ونَظَرٌ ومقارنةٌ وبحث، وطلب العلم إذا خلصت النية أفضل من النوافل .

والعلم فضيلةٌ وشرف، وزينةٌ وجمال. والعلم - أيضًا - روحٌ تُنفَخ لا مسائل تُنسَخ، وليس العلم عن كثرة الحفظ، بل هو كما قال سلفنا: إنما العلم الخشية، وهذه المقولة اقتباسٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر: ٢٨)، حيث يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي إنما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة به أتمَّ، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

والعلمانية نشأت حين كان الناس يظنون أن العلم يناقض الدين، وأن الدين والإيمان لا يدخل إليهما العلم، فالدين والإيمان فوق العلم عند البعض، وخارج العلم عند قومٍ آخرين، وضد العلم عند فريقٍ ثالث، وعلاقة العلم بالإيمان ليست لا هذه ولا تلك، وإن الله لَيَهبُ العلم على قدر التقوى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وأن المسألة لم تكن يومًا مسألة عقول فقط، بل هي مسألة قلوب أيضًا! وقد كان علماء الإسلام يؤكدون على أن طلبهم للعلم وإن بدأ لغير الله إلا أن العلم يأبى إلا أن يكون لله، وفي سبيله .

وقديمًا قالوا: أن دينارًا واحدًا يحتاجُ إلى قنطارٍ من العقل، ونحن نقول أن مقدارًا ولو قليلًا من العلم يحتاجُ إلى مقدارٍ من الرقابة والتواضع لله حتى لا يُورِدَ الإنسان موارد التهلكة، وكما قال الإمام أبو الحسن الماوردي: " وأعلم أن العلم أشرفُ ما رَغِبَ فيه الراغب، وأفضل ما طَلَبَ وجَدَّ فيه الطالب " .

وكلمة الجاحظ التي يقول فيها: " قال الأوائل: حياةُ الحِلْم بالعِلْم، وحياة العلم بالبيان " تثير في النفس ملاحظةً لها أهمية بالغة (فحياة الحلم بالعلم) تعبيرٌ عن مفهوم حضارةٍ وذوقٍ خاص لفهم العلم، إن كلمة (حياة الحلم بالعلم) يمكن أن نفهمها بأسلوبٍ آخر، أي أن حياة الأخلاق بالعلم، وحياة القيم بالعلم، وحياة الحكمة والدين بالعلم، فبالعلم تستقيم الأخلاق، وتحيا القيم، ويرسخ الدين الحق، وعندما تصبح الأخلاق والدين والقيم علمًا ترسَّخَ في النفوس، وتحيا في واقع الحياة، وهو ما أكده أبو حامد الغزالي بقوله: " ولو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه " .

والعلم يحتاج إلى وضوحٍ ولا يحتاج إلى إكراه، كما يقول (جودت سعيد)، ولكن في الناس مَنْ يلجأ إلى الإكراه بدلًا عن الوضوح، وهذا من البلاء الذي يصيب بني الإنسان، وقد أشار الإمام الشافعي إلى العلاقة التي يمكن أن يوجدها العلم بين حملته فقال: " العلم بين أهل الفضل رحمٌ متصل "، ولا أدري كيف يدَّعي الاقتداء بالشافعي أو غيره، وقد صار العلم بينهم عداوةً قاطعة .

إن العلاقة الراشدة التي يبنها العلم بين المعلم والمتعلم هي علاقة تقود إلى الحرية، وليس إلى العبودية، وتسعى من أجل التحرير، وليس من أجل الهيمنة، ولهذا فإن العبارة المتداولة والشائعة،

التي تقول: " مَنْ علَّمَني حرفًا كنتُ له عبدًا "، يجب أن تُحذَف من قاموس العلاقة بين المعلم والمتعلم، فحقُّ العلم أن يحرر من العبودية لا أن يفرضها .

وفي إشارة القاضي الجرجاني لمكانة العلم ووظيفته دليلٌ وبرهانٌ على المسار الذي لا بد أن يسير فيه العلم، ويرغب فيه المعلم والمتعلم، وهي أبياتٌ من الشعر تُكتَب بماء الذهب، يقول في بيتين منها:

ولو أن أهل العلمِ صانوه صانَهُمُ　　ولو عَظَّمُوهُ في النفوسِ لَعُظِّما

ولكن أهانوهُ فهانوا ودَنَّسُوا　　مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجهَّما

ومن البلاء قلة العلم وسوء الفهم .

أقولُ له: عَمْرًا فيسمعُهُ سَعْدًا　　ويكتبُهُ حمدًا وينطقه زيدًا

وكم من عائبٍ قولًا سديدًا　　وآفتُهُ من الفهمِ السقيمِ

والزَّغَلُ في العلم لا يقتصر على طرح المعرفة الهشة، وإنما يتجاوزه إلى الإطناب في بحث القضايا الجزئية وشغل الناس بها .

إن العلم يتولد من خلال حالتين:

1- رغبة الإنسان في تحسين بيئته .

2- فضول الإنسان الذي يدفعه إلى معرفة المزيد عن طبيعة العالم المحيط به.

والعلم يولِّد العلم كما أن النار تولِّد النار، وكلاهما يحتاجُ إلى الرعاية والمناخ الملائم حتى لا تنطفئ جذوة العلم، ولا تخمد حرارة النار، كما يقول (جون آر . بلات) .

ومن العجائب في (كوكب اليابان) أن أيَّ شيءٍ لا يخطر لك على بالٍ يمكن أن يصبح عندهم وجبةَ طعام، هؤلاء القوم يأكلون أيَّ شيء، ويعبدون أيَّ شيء، ولكنهم في العلم والعلوم والأخلاق لا يرضون بأيّ شيء !

وقديمًا قال لنا ابن الوردي: « في ازديادِ العلم إرغامُ العِدَا »، أي أننا إذا ازددنا معرفةً وخبرة، فإن هذه الزيادة في المعرفة تزيد من كفاءتنا في أداء أعمالنا، أيًّا كانت هذه الأعمال، وعندما تزيد كفاءتنا فإننا نرغم أعداءنا، ما لم فإن الإنسان قد يخدمُ عدوَّه دون أن يدري، وقد يخدمه؛ لأن أوضاعه لا تمكنه من غير ذلك، وقد يخدمه؛ لأنه لا يفعلُ ما ينبغي عليه أن يفعله .

وقد أورد ابن القيم رحمه الله مقارنةً لطيفةً جديرةً بالتأمل، يقارن فيها بين العلم والمال وَفْقَ الرؤية التي كانت سائدةً في زمانه، ومكانة كل من العلم والمال في حياة الأفراد والأمم في تلك الفترة، وسنورد مقارنته بطولها، ثم نُعلِّقُ عليها، يقول ابن القيم: " وفضل العلم على المال يُعْلَم من وجوه: أحدها: أن العلم (ميراث) الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء، والثاني: أن العلم يحرسُ صاحبه، وصاحبُ المال يحرسُ ماله، والثالث: أن المال تُذهِبُه النفقات، والعلمُ يزكو بإنفاق صاحبه له،

والرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخلُ معه قبره، والخامس: أن العلم حاكمٌ على المال، والمال لا يحكمُ على العلم، والسادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر و(العلم النافع في الدنيا والآخرة) لا يحصل إلا للمؤمن، والسابع: أن العلم يحتاجُ إليه الملوك فمَنْ دونهم، وصاحبُ المال إنما يحتاجُ إليه أهل العدم والفاقة، والثامن: أن النفس تشرُفُ وتزكو بجمع العلم وتحصيله، وذلك من كمالها وشرفها، والمالُ لا يزكيها، ولا يكملها، ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقصُ وتشحُّ وتبخلُ بجمعه والحرص عليه، فحرصها على العلم عينُ كمالها، وحرصها على المال عينُ نقصها، التاسع: أن المال يدعو النفس إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعو النفس إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد (يقصد هناك العبودية لله، وليس المعنى الذي قد يتبادر إلى الذهن)، والعاشر: أن العلم جاذبٌ مُوصِلٌ للنفس إلى سعادتها التي خُلِقَت لها، والمال حاجبٌ بينها وبين سعادتها، والحادي عشر: أن غِنَى العلم أجلُّ من غنى المال، فإن غنى المال بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقة الإنسان لو ذهبَ في ليلةٍ أصبح فقيرًا، وغنى العلم لا يُخشَى عليه الفقر، بل هو في زيادةٍ أبدًا " .

وبعد هذه المقارنة اللطيفة يمكن أن نضعَ بين أيديكم هذه الملاحظات، التي نوضح من خلالها ما يمكن أن نتفق فيه مع ابن القيم، وما يمكن اعتباره ذا علاقةٍ وارتباطٍ بزمانه، وما يمكننا أن نبني عليه من كلامه، وأيضًا ما يمكننا أن نتجاوزه من بعض ما أشار إليه، وإليكم الملاحظات:

1- العلم اليوم ليس شيئًا موازيًا للمال، كما كان الشأن في الماضي، وإنما هو مصدرٌ للمال والثروات العظيمة، وإننا على قناعةٍ متزايدة أن الاستثمار في العلم هو أفضل أنواع الاستثمار، وأن المخ البشري هو منحة الله العظمى للفقراء الذين حُرِمَت أرضهم من الموارد، والعلم الذي يحصل به تقدُّمٌ، هو العلم المحفوف بالعدل المحروس بالحرية .

2- دخلنا عصر الساندويتشات، حيث كلُّ شيءٍ أصبح (مُختزَلًا) (جاهزًا) (مضغوطًا) (محفوظًا)، سواء في الطعام أو العلم أو المعلومات، والشجاعة كلُّ الشجاعة تكمنُ في تفضيل (مغارم) العقل على (مغانم) الجهل .

3- إن عَدُوَّيْ العلم هما (الظنُّ والهوى)، فتوليد القطعيات من المقدمات الظنية ضَعْفٌ في العلم، كما يقول الدكتور عبد الكريم بكار، وسيطرة الأهواء على كيفية استخلاص النتائج والأحكام ضَعْفٌ في الإخلاص والنزاهة، والظنُّ مهما علا شأنه تصوُّرٌ لا يستندُ إلى دليل، وهو ضدَّ العلم، ولا يُغنَي من الحق شيئًا .

4- العلم يساعدُ الناسَ على حلِّ مشكلاتهم، والوصول إلى حقوقهم من غير إراقة الدماء، أما الجهل فيدفعُ الناس إلى الاقتتال الخالي من الرحمة؛ ليجدوا بعد مُدَّةٍ أنهم أراقوا دماءهم، ولم

يحصلوا على الحقوق، وليس هناك من حلٍ للمشكلات العالقة في حياة الإنسان والمجتمع إلا بالعلم، فالعلم يصحح الطريق، ويزيل الخطأ، ويهدي إلى سبيل الرشاد، وهو كما قال مالك بن بني: " العِلْمُ بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقًا لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه " .

5- وفي سياق ما يحتاجه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر يضع ابن تيميه العلم كأول ثلاث صفاتٍ لا بد أن يتحلى بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر فقال: " فلا بُدَّ من الثلاثة: العلم والرِّفْق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده ". والعلم بغير دينٍ (أعرج)، والدين بغير علمٍ (أعمى)، وَفْقَ المقولة التي تُنسَب إلى أينشتاين .

6- العلم بالنسبة إلى العقل أشبهُ بالزيت الذي نزود به السراج، حتى يضيئ ويقوم بعمله، ولما أذن الله تعالى لأهل العلم بالاجتهاد أذن لهم بالاختلاف، والإيمان القوي الرشيد يحمي نفسه بالتسامح والفهم، في حين أن الإيمان الضعيف المهلهل يبحثُ عن سناء من التعصب والجهل .

7- العلم إذا لم يكن مُؤطَّرًا بعقيدةٍ صحيحة، ومُتزامِنًا في عمله مع نُظُمٍ سياسية وأخلاقية جيدة، فإن قدرته على النهوض بالحياة، ستكون محدودةً، والعلم سواء في مجال الاقتصاد، أو في مجال السياسة، ينقلبُ إلى همجيةٍ تدمِّرُ سعادة الإنسان إن لم تحكمه قِيَمٌ أخلاقية مستمدة من ثقافةٍ مؤمنةٍ بالله، ملتزمةٍ بأمره في تكريم الإنسان .

ولذا فإنه يتم تأسيس الجهل من خلال ثلاث مراحل:

1- الحرمان من المعلومات .

2- ثم نَشْرُ الشك في المفاهيم القائمة .

3- ثم تأسيس مفاهيم جديدة .

وهذه المراحل الثلاث تُدار بشكلٍ ممنهج فيما يُعرَف بإدارة الإدراك .

ويجمع كلُّ المشتغلين في الحقول المعرفية أن المعضلة الكبرى التي تهدد المجتمعات، أمنيًّا وتنمويًّا، وتحرمها حقها في التطور، بل تحرمها من الاضطلاع بواجبها في فهم شروط التطور عبر الاستعانة بالمجتمعات المتحضرة، هي أن (نُخَبَ) هذه المجتمعات لم تتحرر من الجهل، وهذا هو العامل الأول الذي يجعل المجتمعات تستمر رازحةً تحت (أوهام) المعرفة؛ لأنها لم تتمرس بالعلم الذي يكشفُ لها مواطن جهلها .

وكان فولتيير يقول: إن الحماس ليس دائمًا قرين الجهل، ولكنه يمكن أن يكون قرين العلم الخاطئ، ولهذا فعلى الإنسان أن يتخلص من الجهل بالسعي لتحصيل العلم الصحيح النافع، عن طريق القراءة والبحث والمدارسة والسؤال .

وقد صدق بشَّار بن بُرْد حين قال موضحًا أن (العلم خزائنُ مفاتيحها السؤال):

شِفَاءُ العَمَى طولُ السؤالِ وإنما تمامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجهلِ

والعلم حركة دائبة، واستمرار حيويته إنما هو مظهرٌ من مظاهر حيوية الإنسان الذي أبدعه، ولن يتوقف العلم إلا إذا توقفت حياةُ مُبدعِه ذاتها، والتغيير الذي يتخذ شكل التقدم والتحسين هو دليلٌ على القوة، وليس دليلًا على الضعف .

ودعوة القرآن الكريم لاستخدام العقل وإعماله وتوظيفه دعوة صريحة لا تقبل التأويل، ثم إن القرآن أيضًا اهتم بثمرة النظر العقلي، وهو العلم والمعرفة، حيث ورد لفظ العلم في القرآن أكثر من تسعمائة مرة، أما العلاقة بين مصدرَيْ العقل والنقل فأزلية منذ أن خلق الله آدم أبا البشرية، أ . د أحمد الدغشي .

وقد رصد الكواكبي كيف يمكن أن يُستخدَم الدين غطاءً للاستبداد، فقد وجد أن التاريخ يدلنا على أن البعض استبدَّ حتى كاد يزعم الألوهية، بناءً على استعداد أذهان الرعية، لذا وجد أن إصلاح الدين أول خطوة لإصلاح السياسة؛ لأن الدين يغير الوعي، وكذلك يفعل العلم، (فالاستبداد يرتع حيث تستشري الجهالة) .

إن العلم أحد لذات الدنيا، فإذا عمل به الإنسان صار للآخرة. وكلُّ شيءٍ يرخُصُ إذا كثر إلا العلم فإنه إذا كثُر غلا، والحكمة اليابانية ترى أن الأبوين هما بمثابة الأرض والسماء، والعلم بمثابة الشمس والقمر .

وأول العلم: الصمت، والثاني: الاستماع، والثالث: الحفظ، والرابع: العمل، والخامس: النشر، والعلم علمان: عِلْمٌ حُمِل، وعِلْمٌ استُعمِل، كما يقول (ابن عبد ربه) في (العقد الفريد)، وقد أوصى معلمٌ طلابه فقال: (اكتبوا) أحسن ما قرأتم، و(احفظوا) أحسن ما قرأتم، و(تحدثوا) بأحسن ما حفظتم، فذلك العلم والعمل جميعًا .

رأيتُ العِزَّ في أدبٍ وعقلٍ وفي الجهلِ المذلةُ والهوانُ

وما حُسْنُ الرجالِ لهم بحُسْنٍ إذا لم يُسعِدِ الحُسْنَ البيانُ

كفى بالمرءِ عيبًا أن نراهُ له وجهٌ وليس له لسانُ

بناءُ الإنسان .. بناءٌ للأوطان

أورد المفكر (عباس محمود العقاد) مقولةً للكاتب الأمريكي (وندل هولمز) يقول فيها: إن كلَّ إنسانٍ بلا استثناء إنما هو ثلاثة أشخاص في صورةٍ واحدة:

1- الإنسان كما خلقه الله .

2- والإنسان كما يراه الناس .

3- والإنسان كما يرى هو نفسه .

كما نشر الكاتب البرازيلي المشهور " باولو كويلو " قصةً قصيرة (سبق أن ذكرتها في وقفةٍ سابقة، وأعيد ذكرها هنا؛ لعمق دلالتها)، يقول فيها: " كان الأب يحاول أن يقرأ الصحيفة، ولكن ابنه الصغير لم يكفَّ عن مضايقته، وحين تعب الأب من ابنه، قام بقطع ورقةٍ من الصحيفة، كانت تحوي على خريطة العالم، ومزقها إلى قِطَعٍ صغيرة، وقدمها لابنه، وطلب منه إعادة تجميع الخريطة، ثم عاد لقراءة صحيفته، وهو يظنُّ أن الطفل سيبقى مشغولًا بهذا العمل بقية اليوم، إلا أنه لم تمرَّ خمسةَ عشرةَ دقيقة، حتى عاد الابن إليه، وقد أعاد ترتيب الخريطة ! فتساءل الأبُ مذهولًا: " هل كانت أمُّك تعلمك الجغرافيا ؟ ! رَدَّ الطفل قائلًا: " لا، لكن كانت هناك صورة لإنسان على الوجه الآخر من الورقة، وعندما أعدتُّ بناءَ الإنسان أعدتَّ بناءَ العالم " .

كانت عبارة هذا الصغير عفويةً، ولكنها كانت جميلةً، وذاتَ معنًى عميق: " عندما أعدتُّ بناءَ الإنسان أعدتَّ بناءَ العالم ". نَعَمْ فالأهمُّ هو بناءُ الإنسان، " الإنسان أولًا، ومِنْ ثَمَّ تأتي الدولة، وليست الدولة هي الأولى ليأتي الإنسان بعدها " .

الإنسان ليس فردًا في أمته فحسب، ولا في جيله وحسب، ولكنه فردٌ تمتدُّ صلته أفقيًّا حتى تشمل كلَّ أولئك الذين يعايشهم في فترة حياته، وتمتدُّ صِلَتُه عموديًّا؛ لتكون حلقةً في السلسلة التي تبدأ بآدم عليه السلام، وتستمرُّ إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها، ومن رحمة الله على عباده أن جمع في شخص الإنسان على صغر حجمه من العجائب ما يكاد بوصفه يوازي عجائب كلَّ العالم، حتى كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم، ليتوصل الإنسان بالتفكير فيها إلى العلم بالله سبحانه وتعالى .

وطبقًا لمبدأ التكريم فإن الإنسان (غاية) بالمقارنة بما سواه من مخلوقات الله، ويتفرع عن ذلك مَنْعُ استعمال الإنسان (وسيلة)، وحقُّ الإنسان في استعمال المخلوقات الأخرى كوسائل لتحقيق مصالحه وإثراء ذاته، ضمن الحدود الأخلاقية والتشريعية التي رسمها الخالق سبحانه وتعالى له .

وعلى الرغم من أن الإنسان (جسمٌ وروحٌ وعقل)، كما في (تكوينه)، وأنه (طينٌ وروح)، كما في (نشأته)، فإن القرآن حينما يتحدث إليه إنما يتحدث إليه بكليته، يتحدث إلى الإنسان كونه إنسانًا،

وكما أن الآيات التي تمجِّد الإنسان، وترفع مرتبته فوق كل المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠)، تتناول الإنسان لذاته لا لاعتقاده، من حيث هو تكوينٌ بشري، وقبل أن يصبح مسلمًا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا أو بوذيًّا، وقبل أن يصبح أيضًا أبيضًا أو أسودًا أو أصفرًا، كما يقول المفكر المصري فهمي هويدي، إلا أن مسألة التكريم الكسبية تأتي بعد ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣) .

والمتأمل في التكريمين السابقين للإنسان يجد أن التكريم الأول وُجِد مع الإنسان منذ مولده، ولا يمكن أن ينفصل عنه، وهو عطاءٌ من الله وفضل، بينما التكريم الثاني مرتبطٌ بجهد الإنسان وسَعْيه وكَسْبه، ويمكن للإنسان أن يتحصل عليه أو يفرط فيه، والإنسان السوي هو مَنْ يجمع بين التكريمين، تكريم العطاء وتكريم الكسب .

لقد داوى المسيح مريضًا يوم السبت (وهو يومٌ مقدسٌ عند اليهود لا يعملون فيه)، فهُوجِم من اليهود، فقال: " إنما جُعِل السبت من أجل الإنسان، ولم يُخلَق الإنسان من أجل السبت "، وفي هذا القول إشارةٌ إلى مركزية الإنسان في هذا الكون ومكانته السامية .

ويقول أرسطو: الإنسان ليس فقط أنبل المخلوقات، بل هو أجملها؛ لأنه لا يمتاز بالعقل فقط، بل يمتاز أيضًا بالقدرة على التعبير عن أفكاره من خلال اللغة والفن .

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتًا   إلى المجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

وليس شيءٌ خيرًا من ألفٍ مثلِهِ إلا الإنسان .

إن الإنسان كائنٌ متعدد الأبعاد، كثيرُ الوجوه، يبرز وجهًا ويخفي آخر، فيتقي ويفجر، ويطيع ويعصي، ويحبُّ ويكره، ويسالم ويعادي .

والنفس الإنسانية تبدو مركبةً على نحوٍ جيولوجي كما يقول أحدهم: طبقاتٌ لا شعورية باطنة يحجبُ بعضُها بعضًا، وإن الإنسان يبدو من خلال ذلك كائنًا عجيبًا، تتعايش فيه حِقَبٌ مختلفة ومتعارضة، ويجرُّ وراءه تواريخَ مديدةً ومتباينة، ويملك ذاكرةً قصيَّةً بقدر ما هي دانية، ويقبعُ خلفه عقلٌ باطن، فيه دهاليز ومتاهات تقودُ في أحيان كثيرة إلى أغرب أنواع اللامعقول، وتحكُمُ سلوكَه نماذجُ ربما ترقى إلى أول إنسان .

والإنسان قد يكون نحيلًا في كيانه، ولكنه عملاقٌ في تطلعاته، إنه مَلَكٌ سقط من العلياء، ولا يزال يذكر ماضيه، كما يقول الشاعر (لامرتين):

مَنْ أنتَ ؟ تسألني فقلتُ لها: أنا جسدٌ وروح

أنا ذلك الإنسانُ يسري في تواضُعِهِ الطَّمُوح

والإنسان الذي يعرفُ نقاطَ ضعفِهِ يملكُ فرصةً حقيقيةً في تحويلها إلى نقاط قوة، فأصل العلوم (كما يقول الطريفي) معرفة الإنسان بجهله، وكلما كان بجَهْلِهِ أعرف، كان على رَفْعِهِ أحرص، وكلما كان الضعيفُ أبصرَ بضَعْفِهِ كان في طبعه ما يدفعه لتقوية نفسه، ولهذا يكون حرصُ الإنسان على تحصيل العلم بناءً على إدراكه لفوارقه عن محيطه .

وكلما أوغل الإنسان في العلم كَبُرَ علمُه بعِظَمِ جهله، ذلك أن العلم يبصره بآفاق لم يكن يعلمها، ويفتح له مسالكَ ما كان يظنُّ وجودها، مع أن هناك انحرافًا في النفس الإنسانية يجعلُ الإيغال في الخطأ أيسرَ لها من العودة للصواب، كأن نزول الهضبة الموحلة أسهل من العودة للقمة .

ومن كمال الإنسان وميزته عن الحيوان كثرة قيوده الزمانية والمكانية لكلِّ ما ترغبُ نفسه وتشتهي، وقيود الشرع وإن كانت تُثقِلُ كاهل الإنسان، لكنها تُشكِّل وسائل رُقيِّه وسموه كجناحي النسر يثقلانه حين يكونُ على الأرض لكن بهما يبلغُ طبقات الجو العليا .

إن الإنسان كالنبات والأشجار يتأثر مزاجه بالهواء والطقس والمواسم والظروف، وشتان بين أن يكون الإنسانُ مرتاحًا هادئ الأعصاب، أو متعبًا متوترًا، أو مُنقبِضَ النفس، مُتعكِّرَ المزاج، كما أنه (الإنسان) مثل الزورق في البحر يُسيِّره راكبه، ويحدد وجهته، ويعين غايته، ولكن قد تأتي موجةٌ عالية أو ريحٌ عاتية فتُوجِّهُهُ جهةً لا يريدها، وتذهبُ به إلى غايةٍ لا يقصدها .

يطلبُ الإنسانُ في الصيفِ الشتاءَ فإذا جاء الشتاءُ أنكرَه

ليس يرضى المرءُ حالًا واحدًا قُتِلَ الإنسانُ، ما أكفرَه !

إن كمال الشيء يقاس بأدائه للفعل الذي خُلِقَ من أجله، فشجرة البرتقال كمالها ليس هو نفسه الكمال بالنسبة لشجرة الورد، وكمال النمر أن يكون نمرًا، وكمال القط أن يكون قِطًّا، ولا يجوز أن يُحاسَب نوعٌ بكمال نوعٍ آخر، كما يؤكد على ذلك د . زكي نجيب محمود، وعلى هذا الأساس يكون كمال الإنسان مرهونًا بجوهره، وجوهره هنا هو مناطُ تكليفه، وهو العقل، فأفضل الناس هو أقدرُهم على التزام أحكام العقل فيما يفعل وما يجتنب (بناءً على نور الوحي) الذي لا يناقض العقل، وإذا لم يعرف الإنسانُ رغبةَ نفسه ومعرفة عقله، ولم يميز بين حقيقتهما، ومقدار كلِّ واحدٍ منهما أمام الآخر، اختلطت عليه الآراء بالأهواء، وأصبح يسير ويمشي في هذه الحياة لمجرد وجود دافع داخلي فيه، ولو لم يعرف حقيقة هذا الدافع .

وغالبًا ما يكون الإنسان في أول حياته ذا (نفسٍ قويةٍ) شَرِهَة، و(علمٍ قليل)، و(خبرةٍ قصيرة)، وعكسه الشيخ الكبير، فتأثير نفوس الكبار في عقولهم أقلُّ ممن دونهم، وما يعتاده الإنسان قد

يصبح طبيعةً له، حتى يشقَّ عليه الانفكاك عنها، كالطبيعة التي يُولَد عليها، وربما سيَّرته في معتقده واختياره من حيث لا يشعر، كما يقول الدكتور (عبد العزيز الطريفي) .

إن حياة الإنسان لا تُقاس بطول السنين، بل بعرض الأحداث، كما أن تغيير أعماق الإنسان لا يكون بإكراهه؛ لأن الإنسان يكره الظلم والقسر، وبناءً على ذلك فإن تغيير الإكراه لا يكون إلا برفضه، والامتناع عن ممارسته، ولا بُدَّ أن نُدرِكَ من البداية أن نقطة البَدْءِ في تطور أيِّ مجتمعٍ أو أمةٍ هي الإنسان، عقلًا وقلبًا، فالتطور ليس بناء ناطحات سحاب، وليس شراء أحدث الأسلحة، وليس اقتناء أي نوعٍ من الماديات، بل هو بناء الإنسان، ولأن أسمى ما في الإنسان عقله وقلبه، مضافًا إليها النفخة الإلهية (الروح)، لذا فإن العقل الإنساني لا يتحرك إلا بالحرية والإقناع، وإن القلب الإنساني لا يكسب إلا بالحب والكرامة والاحترام .

وما أجمل عبارات أديب العربية (مصطفى صادق الرافعي)، وهو ينصح ابنه قائلًا: " الإنسان كله يا بني مُنْطَوٍ في رأسه، وما هذا الجسم إلا أداة، منها ما يحمل الرأس، ومنها ما يُحمَل إليه، ومنها ما يُحمَل عنه، فالجسم دابة من الدواب لا أكثر ولا أقل، والرؤوس لا يمكن أن تُوزَن بميزانٍ حتى يُعلَم الفرق ما بين رأسٍ ورأس آخر " .

إن ثروة الشعب الياباني الوحيدة هي الإنسان، ولا شيء غير الإنسان، فقد كانت اليابان تستورد كلَّ شيءٍ من الخارج، حتى مِلْح الطعام استوردته في بعض السنوات من اليمن ! والآن أين اليابان وأين اليمن ؟! بل أين اليابان وأين العالم العربي والإسلامي ؟!

لقد أعطتنا اليابان دروسًا في بناء الحضارة من خلال بناء الانسان، وقد أكدت هذه الدروس على أن الانسان عندما يفشل في أمرٍ ما فيخاطبُ نفسه قائلًا: لقد فشلتُ هذه المرة، وأسبابُ فشلي كذا وكذا، وسأعمل على تجاوز هذا الفشل، عندما يخاطبُ الإنسان نفسه بهذه الطريقة، فإن ذلك سيدفعه بشكلٍ لا شعوري إلى تلمُّس طرق النجاح، والتغلب على فشله .

أما إذا فشل الإنسان في أمرٍ ما فخاطبَ نفسه قائلًا: أنا إنسانٌ فاشل، ولن أنجح أبدًا، فإن ذلك سيدفعه بشكلٍ لا شعوري إلى أن يسلك طرق الفشل، ولن يرى فرص النجاح، حتى لو كانت ماثلةً أمام عينيه .

وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع، فعندما تكون هناك صورةً سلبيةً في أذهان أفراده، فإن ذلك سيدفعُ بالمجتمع في طريق الهبوط دائمًا .

إننا عندما نردد فيما بيننا أوصافًا سلبيةً نَنْعَتُ بها مجتمعنا، إنما نساعد على تكريس هذه الأوصاف وانتشارها في المجتمع .

إن الإنسان الناجح هو ذلك الإنسان الذي يفعل ما لم يفعله الآخرون، فالمهنُ كثيرة، ولكن الناجحين فيها قليلون، إن الإنسان الناجح يمتلكُ حسَّ المبادرة دومًا، ولا يلحق الآخرين في سباتهم وتشاؤمهم واستسلامهم .

والإنسان - في الغالب - ابنُ مألوفه، وهو يتجاوبُ تلقائيًّا مع ما ألفه، واعتاد عليه، وتمرَّس به، ومن طبيعة الإنسان أن يكون واثقًا تلقائيًّا من صحة آرائه ووجاهة مواقفه دون بحثٍ أو تردد، فهو يشعرُ تلقائيًّا بكفاية معلوماته مهما كانت ضئيلةً أو خاطئة؛ لأنه تبرمج بها، وتآلف معها، واعتاد عليها، وبسبب هذه الطبيعة البشرية العامة فإن الإنسان على المستوى الفردي أو الثقافي لا يؤجل الحكم من أجل التحقق، بل يحكم ويتصرف تلقائيًا، ثم يستقر الحكم، ويصبح بحكم التقادم والتآلف والاعتياد حقيقةً لا تُناقَش، وأحيانًا لا يكون القرار أو السلوك مُقتصِرًا على فردٍ واحد، وإنما يهيمن على أمةٍ بأجمعها، وتستمرُ الأجيالُ تتوارثه، ولا تُخضِعَه لأي تحليلٍ أو مراجعةٍ أو تصحيح، فالاعتياد عليه يُكسِبُه حصانةً تقتربُ به من القداسة، وهذا ما نعانيه في واقعنا العربي والإسلامي بكل أسفٍ ومرارة .

والإنسان كائنٌ متدين بطبيعته وفطرته، فقد عرفت البشرية منذ نشأتها صورًا مختلفة من الحياة الدينية، وظلَّ الدينُ حاضرًا في كل مراحل تطور الإنسانية، مُلهِمًا وفاعلًا في توجيه الاجتماع البشري، رغم تغير حجم الدور الذي يلعبه من فترةٍ لأخرى .

وهذا يعني - من ضمن ما يعني - أن (قابلية التدين) في الإنسان تخضع للتغيير والتطوير، فقد ينقلبُ الإنسان على فطرته ويجحدها أو يَعْمَى عنها، فيخسر بذلك نفسه كما في التعبير القرآني، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، أو يلتئم الإنسان مع نفسه الفطرية، ويسعى بها نحو أمر الله، فتنمو بذلك نموًا دينيًّا طيبًا، فيكون كمَنْ وجد الوحي في قلبه قبل أن يقرأه في الكتاب (نورٌ على نور) .

وعلى هذا الفهم للفطرة يتأسس معنًى آخر هو معنى الحرية والبراءة الأولى، فليس هنالك قهرٌ فطري على الإيمان، وليس هنالك بالمقابل قهرٌ فطري على الكفر، والإنسان لا يُولَد برصيدٍ من الحسنات الأولية، ولا بسجلٍّ من الخطايا القَبْلية، وإنما يُولَد على البراءة، والحسنات والسيئات تلحقُه، وتتعلق به بعد السعي والكسب .

و توحيد الولاء لله يُسقِطُ الولاءات الأخرى، فيتحرر الإنسان، وعندها يصبح عبدًا لإلهٍ واحد هو الله، فلا يتحكم في رقبته حاكمٌ، ولا في عقله كاهن .

والإنسان ما لم يَنْفُذْ لجوهر الدين، وما لم تَسْتبِن له قيم الدين استبانةً واضحةً لا غموض فيها ولا التواء، وما لم تنعقد نفسه على قناعةٍ كاملةٍ بها، فإن طقوس الدين وأشكاله وألفاظه، لا تُشبِعُ روحه، ولا تُنمي فيه نازعات الخير، أو تردع فيه جانحات الشر، وسيستبدُّ به الهوى الشخصي والمنفعة الذاتية القريبة، وسوف تكون فكرة الغيب أو الخير العام مجرد ألفاظ تخفي تحتها صراع المصالح والسلطة، حسب وصف د . التيجاني عبد القادر .

وقد أراد الله - سبحانه وتعالى - أن تكون المبادرة في مسيرة الإيمان من الإنسان نفسه، حتى يكون الإيمان فاعلًا متحركًا، وثابتًا، وحتى يكون ثمرةً للعزم والتصميم والإرادة، فقرار الإيمان (قرارٌ حر)، لكنه (قرارٌ خطير) حاسم، يتوقف عليه مصير الإنسان في الدنيا والآخرة .

وقد خلق الله في الإنسان مَلَكاتٍ متعددة، ولكي يعيش الإنسان في سلامٍ مع نفسه، لا بُدَّ أن تكون مَلَكاته منسجمةً وغيرَ متناقضة، فالمؤمن مَلَكاته منسجمة؛ لأنه اعتقد بقلبه في الإيمان، ونطق لسانه بما يعتقد، وتحركت جوارحه بما اعتقد وقال، فلا تناقض بين مَلَكاته أبدًا، وعلى العكس من ذلك المنافق، الذي لا تنسجم مَلَكاته أبدًا، فظاهره غير باطنه، وعلانيته غير سريرته. والعجيب أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستمع إلى النصائح، ولا يلتزم بها في أحيانٍ كثيرة .

إن العلاقة بين الإنسان والكون علاقةُ وُدٍّ وتفاهم، وهي كذلك بين الألوهية والعبودية، علاقة رحمةٍ وهداية، كما أن مروءة الإنسان وكرمه، وحسن خلقه وحميَّته، وحلمه وأناته، تنتقل معه إلى أيةِ مِلَّةٍ تحوَّل إليها، ويمكن أن يعتقد الإنسان بعقائدَ تَحُدُّ من إدراكه للعالم، أما حين يفقد الإنسان إيمانه بالله، فهكذا يصير حاله: ضراوة الوحش، وتفاهة الانحلال .

ولا أعتقد أن سطوة التكنولوجيا وسيطرتها تُعَدُّ ضمانًا لرفاهية الإنسان وسعادته، إذا أغفلنا الجانب الروحي من حياة الإنسان، وقيمه العليا النبيلة، كما يؤكد على ذلك د . حسين كامل بهاء الدين .

ليكن شعار الإنسان المؤمن الذي يتعبد الله به، هو الشعار الذي يقول: " أنا أستطيعُ أن أكون الإنسان الذي أراده الله " .

" إننا لا نعرفُ الإنسان ككل، إنما نعرفه على أنه مكوَّنٌ من أجزاءَ مختلفة، فكلُّ واحدٍ منا مُكوَّنٌ من موكبٍ من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة "، بهذه العبارة وأمثالها دشَّنَ صاحبُ كتاب (الإنسان ذلك المجهول) المفكر (ألكسيس كاريل) كتابه الذي يحمل العنوان نفسه، ورغم الاحتفاء الكبير بالكتاب في حينه - وهو بالفعل يستحق ذلك - إلا أنه ينطلق من رؤيةٍ قد يتوقفُ أمامها المفكر

المسلم طويلًا، فيتفق مع بعضها، ويختلفُ مع بعضها الآخر، وَفْقًا للمنطلقات التي ينطلق منها كلاهما .

والإنسان بالفعل كلٌّ لا يتجزأ، ولا يمكن التعامل معه بالطريقة التجزيئية، وهو في غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرضٍ مبسطٍ وبسيطٍ له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه، في وقتٍ واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي، إلا وَفْقَ نورٍ من الوحي، وهذا هو الفارق بين رؤية المفكر المسلم وغيره .

والتعرف على الإنسان والتعريف به من خلال بُعْدٍ واحد من أبعاده (مادي، روحي، نفسي، عقلي) فيه نوعٌ من الإخلال والاختزال للإنسان في أحد أبعاده، والإنسان ليس بُعْدًا واحدًا، ولا يُسمَّى إنسانًا بالتركيز على هذا البُعْد أو ذاك، بل هو إنسانٌ بمجموع أبعاده .

وهذا الإنسان، في جانبه المظلم، والذي أصبح الآن سيدًا للطبيعة، ومسيطرًا عليها وَفْقَ الرؤية الغربية، يكاد يدمرها ويلوثها، وها هو ينعُمُ بالأدوات ويرفلُ بالكماليات، ولكنه يعيش في صحراءَ من الحديد والإسمنت .

لقد طوَّر الإنسان المؤسسات، ولكنه يعيش على فرديةٍ قاتلة. ووَسَّعَ شبكة علاقاته، ولكنه حَدَّ بذلك من دوره كإنسان، وبَرْمَجَ سلوكه، ولكنه يكادُ يفقد إنسانيته، وسيطر على الأشياء، ولكنه يكاد يفقد السيادة على نفسه، ومجمل القول إن الإنسان حقَّقَ تقدمًا هائلًا في أنساقه العلمية، وفي قدراته التقنية، ولكنه تراجع على صعيد الخُلُق، كما تراجع في عالَم المعنى .

كلُّ ذلك التقدم الهائل الذي عرفه الإنسان على الصعيد العلمي والتقني، لم يُؤدِّ به إلى توزيعٍ للثروات والسلطات والمعارف على نحوٍ أكثر عدلًا وتوازنًا، بل يبدو الإنسان اليوم أكثر نزوعًا إلى العدوان والتسلط وأشدَّ تكالبًا وجشعًا من ذي قبل، ولعله ليس أكثر حكمةً وتحررًا، ولا هو أكثر سعادةً وهناءةً من أسلافه، وكأنه كلما ازداد الإنسان تحضرًا تكثَّفَ باطنه، وقَوِيَ مكبوتُه، وكثُرت خوافيه، فازداد مخزونه من العنف، وهو العنف الذي تجسده البربرية المعاصرة، وَفْقَ توصيف د . علي حرب، وكأن المتنبي يقصد هذا الإنسان ببيت الشعر الذي يقول فيه:

كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ركَّبَ المرءُ في القناةِ سِنانا

إن ما نحتاج إليه الآن، ليس التباكي على إنسانيتنا المنتهكة؛ لأن ما نحصده من الهمجية، هو ثمرة داءٍ مُركَّب بآفاته الثلاث: (المركزية) البشرية التي تدمر علاقة الإنسان بالطبيعة، و(النرجسية) العقائدية (التعصبية) التي تُسمِّم العلاقات بين الناس، و(الأحادية) الوجودية، التي تختزل الإنسان في بُعْدٍ واحد، لكي تولّد الجهل والعجز، وما يتبعُ ذاك من المساوئ والمخاطر والكوارث .

وبالمجاهدة يتمكن الإنسان (أولًا) من وَقْفِ التسابق القاتل على التكاثر المريع الذي يكاد يُحوِّلُ الاجتماع المعاصر إلى بربريةٍ لا سابق لها، ويتمكن (ثانيًا) من إيقاف زحف التقنية، وغزو البرمجة اللذين يوشكان على التهام الثقافة وتعطيل العقل، ويتمكن (ثالثًا) من وَضْعِ حَدٍّ لانفلات المقهور والمكبوت الذي ينفجر تعصبًا وانغلاقًا وإرهابًا، ويتمكن (رابعًا) من إعادة بناء ذاته المفلولة، وَفْقَ تعبير د . علي حرب، وتجديد صلته بنفسه وبالأشياء وبالعالم، وبخالقه سبحانه وتعالى قبل هذا وذاك .



نبذة تعريفية بالمؤلف

السيرة الذاتية:

المعلومات الشخصية:

الاسم: دكتور / يحيى أحمد حسين المرهبي .

محل وتاريخ الميلاد: حجة 5 / 2 / 1973م.

الحالة الاجتماعية: متزوج وأب لسبع بنات وثلاثة أولاد.

محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران / مدينة عمران / حارة النهضة السكنية / شارع 22مايو.

رقم الموبايل: 00967774155602

البريد الإلكتروني: almerhbi2010@gmail.com

المؤهلات العلمية:

1 -(**2016م**) دكتوراه فلسفة التربية قسم أصول التربية (سياسات تربوية) / جامعة الدكتور / بابا صاحب امبيدكار / مهارا اشترا / أورانج أباد / جمهورية الهند.

2 -(**2008م**) ماجستير أصول تربية من جامعة صنعاء / كلية التربية بتقدير عام: 82,5 % جيد جدًّا.

3 -(**2004م**) تمهيدي ماجستير أصول تربية من جامعة صنعاء / كلية التربية بتقدير عام: 82,66 % جيد جدًّا.

4 -(**98 / 99**) بكالوريوس تربية إسلامية من كلية التربية بعمران / جامعة صنعاء بتقدير عام جيد .

5- (**91 / 92**) دبلوم معلمين ثلاث سنوات معهد معلمي عمران بتقدير جيد جدًّا.

خبرات التدريس:

1 -عمل مدرسًا لمدة عام في مجال التربية والتعليم في العام 91 / 92 م.

2 -درَّس مقرر (أصول التربية) لطلبة كلية التربية والألسن المستوى الثالث للعام 2008 / 2009 م وما بعده، للأقسام: كيمياء، فيزياء، إنجليزي تربية، القرآن الكريم وعلومه، اللغة العربية، الجغرافيا، التاريخ.

3 -درَّس مقرر (أساليب تدريس 2) للأقسام: جغرافيا، تاريخ، دراسات إسلامية.

4 -درَّس مقرر (الثقافة الإسلامية) في عددٍ من الكليات الخاصة.

5 -درَّس مقرر (مهارات الاتصال) في عددٍ من المعاهد والكليات الخاصة.

6 -درَّس مقرر (أساسيات البحث العلمي) في عددٍ من المعاهد والكليات الخاصة.

خبرات الكمبيوتر واللغة:

1 -رخصة قيادة الحاسوب من جامعة صنعاء عام 2008م.

2 -شهادة من مركز الحاسوب وتقنية المعلومات جامعة عمران بمشاركته بدورة الانترنت ومحركات البحث خلال الفترة من 30 / 10 إلى: 10 / 11 / 2011م.

3 -شهادة من كلية اللغات بجامعة صنعاء بحصوله على تقدير جيد جدًّا في اللغة الإنجليزية.

4 -شهادة من المعهد الأمريكي بصنعاء بحصوله على تقدير جيد جدًّا في اللغة الإنجليزية.

5 -يجيد اللغة العربية الفصحى كتابةً ومخاطبةً وقراءة.

ورش العمل التي شارك فيها:

1 -شارك في ورشة العمل التي أقامها مركز الإرشاد التربوي والنفسي (جامعة صنعاء) حول كيفية تصميم البحوث العلمية في العلوم الإنسانية للعام 2007م.

2 -شارك في ورشتَيْ عملٍ أقامتهما جامعة بابا صاحب / كلية التربية بجمهورية الهند خلال العام 2016م.

3 -شارك وحضر كورس مناهج البحث وطرق الإحصاء ببرنامج الدكتوراه بجمهورية الهند لمدة شهر خلال العام 2013م

4 -حضور ورشتَيْ عمل بجامعة صنعاء للعامين (2010)، (2011م)، حول القبول والتسجيل.

5 -المشاركة في ورشة عملٍ أقامتها كلية التربية والألسن بعمران حول توصيف المقررات خلال العام 2010م.

المؤتمرات العلمية التي حضرها:

- حضر ثلاثة مؤتمرات علمية أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه بجمهورية الهند خلال الأعوام 2013، 2016، 2017م.

الإنتاج العلمي:

1 -رسالة دكتوراه بعنوان (**دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء).**

2 -رسالة ماجستير بعنوان (**العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران).**

3 -لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند:

(أ) البحث الأول بعنوان: **" مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طلابها "**، (2013م).

(ب) البحث الثاني بعنوان: **" دور الأسرة والمدرسة في تطوير قيم المواطنة لدى أبنائها التلاميذ "**، (2013م)

(ج) البحث الثالث بعنوان: **" آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية "**، (2016م).

(د) كتاب بعنوان (**على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة)**، (2019م).

(هـ) كتاب بعنوان: (قد أفلح من زكاها). 2019

ولديه أبحاثٌ وكتبٌ لم تُنشَر هي:

1-بحث بعنوان (**دور الفروض الكفائية في التنمية المجتمعية المستدامة رؤية إسلامية).**

2 -بحث بعنوان (**مدى وعي طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية بقِيَم المواطنة).**

3 -بحث بعنوان (**بناء ثقافة السِّلْم لدى طلبة المرحلة الأساسية بأمانة العاصمة صنعاء).**

كما أن لديه بعض المشاريع لدراساتٍ وأبحاثٍ وكتبٍ لم يُستكمِل إخراجها، وتحتاج إلى وقت.